

سيدة القصور

آخر أيام الفاطميين بمصر

تأليف

علي الجارم



اسم الكتاب: سيدة القصور

اسم المؤلف: علي الجارم

الطبعة الأولى: ٢٠١٩

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢١٠٥٢


الترقيم الدولي: ٠-١٩-٦٦٩٢-٩٧٧-٩٧٨

تصميم الغلاف: أحمد فرج

الإخراج الفني: ضياء فريد

مراجعة وتحرير: دينا سعيد



01271185731 

kotopiapu@gmail.com 

kotopiapu 

٣٦٨ شارع عبد السلام عارف - فيكتوريا - الإسكندرية 



جميع الحقوق محفوظة ©

يمنع منعاً باتاً الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة أو النشر الإلكتروني أو التصوير الضوئي للمحتوى أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر والمؤلف، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية طبقاً لحقوق الملكية الفكرية المنصوص عليها في القانون.

الفصل الأول

كان النهار في صولة شبابه، وكانت الشمس تبعث بأشعتها وهاجة ملتهبة تكاد تشوي الوجوه، وكان الجو على حرارته كثير الرطوبة، والندى المتصاعد من البحر، وكان النسيم الذي أكثر الشعراء من ادعاء أنه عليل، قد طالت علته ففضى نحبه، فلا تسمع له جرة ذيل ولا همسة أنين.

وقد أضنى الناس بمدينة عدن هذا الوَمدُ، وهزل أجسامهم القيظ بعد أن بعد أن توالى عليهم شهور الصيف شديدة لَوّاحة، كأنما كانت تتنافس في مسهم بشواظها، فلا يجيء شهر إلا هو أشد وأنكى من صاحبه.

وظن أهل المدينة أن العرِّي يخفف عنهم بعض ويلات الحر، فتسلبوا من الملابس إلا أزرًا قصيرة يشدونها على أوساطهم، ولو علموا لصانوا أجسامهم من هذا السعير اللافح، الذي كساهم ثوبًا لماعًا من العرق، كلما تساقط نسجت لهم الشمس ثوبًا جديدًا، وكلما مسحوه بأيديهم سال نبعه وتقاطر، حتى كأن كل رجل أصبح

إنبيقاً يتحول كل ما فيه ماء بالتصعيد والتقطير.

خلت طرق المدينة من السابلة إلا من دعت شدة الحاجة إلى المسير، وفزع المتعطلون إلى الظل والنجائر يتقون بها شدة الهاجرة، أما الأغنياء والموسرون: فلبسوا البيوت، وزرّروا الأبواب، والتجأوا إلى سراديب عميقة في الأرض، ينفذ إليها الهواء من بناء اسطواني كالداخنة، يشق طبقات الدار، وتنفذ فوهته إلى سطحها، وكان علي بن المهدي_ وهو من دعاة الفاطميين، وكبار رجالهم_ في داره في هذا اليوم، ومعه جماعة من الأدباء والعلماء، بينهم أبو كاظم الحراني، والفقير أبو الحسن النيلي، وأسامة الحضرمي. وكانت الدار على سيف البحر، فخمة شاهقة البناء، تدل على عظمة صاحبها، واتساع جاهه، وقد أسرع العبيد فبلّوا دهايز السرداب بالماء، حتى بدت فيها بحيرات صغيرة هنا وهناك.

وجلس ابن مهدي وأضيافه في حجرة كان أثاثها غاية في الحسن وجمال التنسيق، وقد كسيت فيها الأرائك بالحريز الأرجواني، واختيرت الستور من الخز التنيسي، وفرشت الأرض بالبسط الهندية، ودل كل شيء فيها على ذوق سليم وبذخ وإسراف، وقد وقف في نهاية الحجرة أربعة عبيد، يمسكون بحبال مروحة مستطيلة، عملت من القטיפفة الغليظة النسيج، وعلقت بسقف الحجرة على طول امتداده، فهم لا يفتأون يجذبون الحبال ويرخونها، والمروحة تتحرك إلى الأمام والخلف؛ أملاً في أن تجود على من بالحجرة بنفس من النسيم.

بدأ ابن مهدي فقال: هذا يوم لم ترَ عدن له مثيلاً، وستصبح سنة تسع وأربعين وخمسمائة ذكرى خالدة لأهلها، يوقّتون بها ويؤرخون.

فقال الحراني_ وكان فكها: سيقولون زار الحراني عدن سنة الحر، فعاجلة النيلي وقال: سيقولون سرق خرج النيلي سنة الحر؛ فضحك القوم، فضحك ابن مهدي وقال: أسرق منك خرج حقاً؟! - لا أدري... أسرق؟! أم ابتلعت الأرض؟! أم تخطفته السماء?!

وصلت القافلة من زبيد عند باب المدينة الذي يسمونه هنا(باب الصدقات)، أو هو باب السرقات على الأرجح، وحط رحلي، ووضع ما عليه من متاع وأثقال، وأنا أنظر إليه لا تكاد عيني تذهب عنه، وكان الخرج بين المتاع، وقد ازدحم حول السفار جماعات من الحمالين والمجتدين، وبينهم امرأة هزيلة شاحبة من أسمال_ أو فيما كانت أسمالاً_ لا تكاد تستر جسمها، وكان وجهها يحكي وهو صامت حكاية مؤلمة للسغب، والفاقة ومرارة الحاجة، وقد حملت بين يديها طفلاً أو جعلاً، تركه الجوع عظاماً في جلد، أو جلدًا على عظام، وأخذت تمد ذراعيها به في وجهي، فراعني سوء حالهما، وبحثت في جيبي عن درهم أمسك به رمقهما، وما كدت أمدّ يدي به إليهما، وأعود بعيني إلى أمتعتي حتى وجدت مكان الخرج خاليًا!!! فقال الحراني: هذه هي اللعبة يا سيدي التي لم تدرسها في الكتب، ولم تجد لها مثيلاً في كتب الحيل الفقهية للخصّاف، وكأنما كان أبو نواس اللثيم يشير إليك بسبابته حين يقول:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء.. هذه المرأة يا مولانا تعمل مع اللصوص والشطار، وهي آلتهم التي بها يصلون إلى غاياتهم، هي الطعم الذي يقذفون به إلى السمك لاصطياده، هي الحب الذي ينثر حول الفخ ليقع فيه الطائر الغر، هي البؤس المزوق الذي جاء يستلب مالك اضطراراً لما عجز البؤس المحقق عن أخذه منك اختياراً، هذه المرأة وأمثالها يرسلها العيارون إلى من ينكب بهم؛ ليثير منظرها المؤلم نفسه، فيصرفه عن النظر إلى ما حوله، وقد يكون مقدار ذهوله لحظة أو دونها، وهذه اللحظة كافية لأن يسلبوه ما يشاءون.

فقال النيلي_ وقد ظهرت في نفسه آلام من يشعر بالتفريط، أو من يتوقع أنه سيوصم بالغفلة والبلاهة: حقاً إنهم شياطين!!
وهنا سأله ابن مهدي في شيء من الاستنكار: ألم تذهب إلى والي المدينة، وتقص عليه قصتك؟ فلعله يجد سبيلاً للوصول إلى ما سرق منك!!

- ذهبت إلى داره، وهي تقع في محطة الحدادين إلى الجانب الشرقي من المدينة، فوصلت إليها بعد لأي وجهد، فلما طرقت الباب خرج لي أحد غلمانه، فلما سألته عنه، قال: إنه مريض منذ يومين، أكل لحم جزور زهمه فأصيب بالزحار. فسألته عن وكيله، وأين مكانه؟ فقال: إنه أعرس بالأمس، وإنه نازل عند أصهاره (بني جبلة)، وإن المسافة بين عدن وبينها سبعة عشر فرسخاً؛ فحوقلت ورجعت، وقلت لنفسي: ضاع خرجك يا أبا الحسن بين معاناة الزحار، ومناغة الأبقار!!

فضحك القوم، وأغرقوا في الضحك، ثم قال ابن مهدي في
مواربة ودهاء: خلّ! عن المزاح الآن أبا الحسن... كيف حال الدعوة
الفاطمية بزبيد؟! لقد جاءت رسالة من الخليفة الفائز إلى محمد بن
سبأ ينعي عليه في التهاون في نشر الدعوة، ويستحثه على أخذ كل ما
نكل عنها بالبطش وقوة السلطان.

فأجاب الحراني: إن الدعوة الفاطمية بزبيد على خير ما يتمنى
لها من القوة والانتشار، فإن الملك لا يفتأ ناشراً لها، عاملاً على بثها
في كل نفس، ونائب داعي الدعاة هناك، ونقباءه، ونوابه لا يتركون
سنيًا حتى يضموه إلى حظيرتهم، فقال ابن مهدي: ذاك كلامٌ أبا
كاظم، فإن ما لدينا من الأخبار يجبه ما تقول، ولعل حبك لفاتك هو
الذي دفعك إلى الذود عنه!

فأسرع الحراني قائلاً: لقد صدقتك يا سيدي، وإن كان لا بد
من الحق الصريح الذي لا يخالطه استثناء، فإنني أؤكد لك واثقاً
أن زبيد كلها فاطمية، إلا أسرة زيدان، وأسرة المثيب، وهما أعمام
عمارة بن زيدان وأخواله.

فانبرى له الحضرمي_ وكان صديق عمارة الوفي_ قائلاً: مالك
أبا كاظم وعمارة؟! إنك في النيل منه والكيد له جدٌ متهم... وإن
كنت لا أعرف أسباب نقتك منه وحقك عليه؟!

وهنا صاح ابن مهدي، وقد رأى الشر يتصاعد شرره: مه
أيها الأخوان... فإننا اجتمعنا للمحادثة والمحاضرة، لا للتنابد
والمهاترة... أعلمتم أن عمارة بن زيدان، قدم منذ أيام وافداً على
محمد بن سبأ صاحب عدن؟ أتعرفون سبب هذه الوفادة؟ فأسرع

الحراني قائلاً: إنه قناص سديد الرماية فلعله اشتم هنا رائحة صيد جديد، ثم قال النيلي: إن عمارة اليوم يا سيدي غيره بالأمس، فقد كنا نعرفه بالمدرسة العصامية بزيد فقيراً مملقاً، يعيش عيشة طلاب العلم في عسر وشقاء، ولكنه بعد أن اتصل بأمير زيد ومدحه أغدق عليه، فأصبح صاحب الحول والطول، وصار موضع الشفاعات، وقاضي الحاجات، ثم إنه تاجر فراجت تجارته، وسارت سفنه بين زيد وعدن وجدة، لا تكاد تنقطع في ليل أو نهار، حتى لقد قال له يوماً أبو عبدالله الحفائلي_ وهو رأس العلم والدب بزيد: ته علينا أبا محمد، فقد أصبحت ولا مثل لك في الجاه والعلم والثراء! وليته بعد أن أسبغ الله عليه النعمة الطارئة شكر الله عليها بقليل من التواضع، أو أدى زكاتها بشيء من اللطف والمجاملة! ولكنه صلف متكبر مغرور وإن كره الحضرمي، فأسرع الحضرمي وقال: كفى كفى أبا الحسين؛ لقد أكلتم لحم أخيكم ميتاً، ومزقتم من الرجل وهو غائب ما تخرس دونه ألسنتكم وهو حاضر، إن عمارة لم يكن دعياً في جاهه، ولم يكن محدثاً في نعمته، إن عمه علي بن زيدان أكرم من نثر مالا، وأشجع من جرد سيفاً، وخاله محمد بن المشيب أشرف قومه، وسيد قبيلته، ولولا الجذب المحرق الذي أصاب (مرطان) سنة تسع وعشرين وخمسائة، فأهلك الحرث والنسل_ ما احتاج عمارة إلى السعي في الرزق، والتنقل في طلب المال، وما سمعنا أبي الحسن النيلي يلمزه اليوم بأن نعمته طارئة، وثورته محدثه. فقال ابن مهدي: إن عمارة رجل يجمع كل صفات الرجولة، وقد حادثته بالأمس في دار سبأ، فرأيت فيه علماً وأدباً ودهاءً، والذي قرأته في

وجهه واستنبطته من حديثه: أنه رجل عظيم الآمال، كبير النفس، طوح بعيد المدى، وهو يذكرني بالمتنبي شاعر كافور، وأرجو ألا تكون له مثل خاتمته.

ثم مدت مائدة الطعام، وقام الغلمان بالخدمة، وقدمت الألوان الشهية، وأنواع التوابل الهندية، فأكل القوم وشربوا، وهم يتنادرون ويتسامرون، ثم استراح الضيوف بعد الأكل قليلاً، حتى إذا قاربت الشمس المغيب، ودَّعوا ربَّ المثلوى وانصرفوا.

الفصل الثاني

خرج الحراني والنيلي والحقد يملأ قلبيهما، لما سمعاه من إطراء ابن مهدي صفات عمارة، وهما يعلمان ما لابن مهدي من عظيم التأثير والكلمة المسموعة عند محمد بن سبأ، وأنه إذا ظفر عمارة بمودتهما، بعد أن فاز عند أمير زبيد بعظم المكانة لم يأمنه شره.

وأسفا على أن طعناه، ونالا منه أمام صديقه الحضرمي، الذي سينقل إليه صورة ما دار في المجلس كاملة وافية، إن لم يزد عليها كثيراً من ألوان التحسين والتزويق.

بدأ الحراني الحديث قائلاً: ما العمل أبا الحسن؟! فقد زلق لساني، وتجاوزت حد الحزم في ثلب عمارة، وتمزيق عرضه؟! إن عمارة اللثيم الداهية استطاع أن يحافظ على مذهبه السني، وأن يجتذب هؤلاء الفاطميين من ناحية، ورؤساء زبيد من ناحية أخرى. حقاً إن أمر هذا الرجل عجيب!

إن له في التأثير في الكبراء ما يشبه السحر، حتى كأنه بقوة روحه أنسى الفاطمية التشدد في إلزامه مذهبهم، وكأنهم يرونه خلقاً عظيماً فوق كل المذاهب والعقائد؟

إنه يمدح الفاطميين، ويمدح السنيين بشعره، ولو رأى مجوسياً لمدحه، وإن خاطبه الناس في هذا ولا موه قال: إن تجارة السلع علمته التجارة في الشعر، يبيعها لكل من تقدم لشرائها، وإنه لم ير في حياته بزازاً امتنع عن أن يبيع لوثنى أو رافضي، ويظهر أنه بهذه الطريقة نجى بمذهبه السني.

- هو في الحق شديد الحرص عليه، وهو في الحق يمتاز علينا في هذا، فإننا أظهرنا التمسك بالمذهب الفاطمي عند أول تهديد من داعي الدعاة.

- هون عليك أبا الحسن، فإن قليلاً من الرياء في هذه الدنيا ليس بالأمر الجلل، وهو سلاح خلقه الله فينا نتقي به الخطر، كما خلق الدرقة في السلحفاة، والقدرة على التلون في الحرباء، ولو أن سائلاً سألني عن منفعة اللغة لأجبت بأن أعظم فوائدها: أنها لا تعبر عما في الضمير!! وهؤلاء السادة الذين تراهم، وهؤلاء العلماء، وهؤلاء الأثرياء لن يستطيعوا العيش بلا رياء.

إن الأطفال في هذا الزمان يراءون! ولست أدري أكان أكثرهم ابن صيفي يدعو إلى الصدق، أم كان يدعو إلى الكذب حين قال: إن قول الحق لم يدع لي صديقاً.

- صدقت!! لو أن كل إنسان يعرف ما يجول بنفسه بشأن من يعرف من الناس، ومن لا يعرف_ لفتك به الناس... تخيل أبا الكاظم أنني وثبت اليوم على ابن مهدي مضيفنا، وأخذت بتلابيبه وصحت: إنك ثقيل ورب الكعبة!! إن كبرك لا يحتمل!! إن تعاقلك وزهوك، وتكلمك من أطراف أنفك فوق طاقتي!! اغرب عن وجهي إنك سمح دنيء!!
تخيل أنني فعلت هذا، ثم تخيل ماذا يكون.

وهذا الشيخ الذي تراه الآن راكبًا بغلته، وخلفه عشرة عبيد يلهثون من التعب، وهو ينظر في الناس يمينًا وشمالًا في بلاهة وعجب كأنه يريد أن يصيح فيهم:(انظروني أيها العميان، وانظروا إلى ما أنا فيه من جاه وثروة)_ ألا تحب أن تعدو خلفه، وتبصق في وجهه، وتعرفه أنه مأفون متبجح نذل!؟

- إن أمثال هذا كثير، فدعنا الآن نفكر في ما ينجينا من عمارة وويلاته.

- علمنا اليوم من ابن مهدي الأبله: أن عمارة اجتمع به في دار سبأ، وفهمنا من حديث بن مهدي الغر: أنه جاء إليهما ليتحدثا معه في أمر جسيم، ألم يقل ابن مهدي:(إن عمارة رجل عظيم الآمال، كبير النفس، طموح بعيد المدى)؟

- هذا صحيح، فماذا يا ترى كان موضوع الحديث؟

- إنه فيما يغلب على ظني لم يكن حديثًا للمسامرة والتسلية، بل كان مفاوضة ذات شأن.

- في أي شأن كانت المفاوضة يا أبا الحسن؟

- لا أدري، ولكن ألا تعلم (مفلحًا) خادم ابن سبأ الخاص به،
والأثير عنده؟

- أعرفه... وهو صديق لي حميم... وهو سني في الباطن، ما
كان يرد إلى زيد ليسألني في فقه الشافعي، و(مفلح) هذا
إذا عرف شيئاً من المفاوضة، ومما دار بين هؤلاء الثلاثة من
الحديث_ فلن يتوانى عن إخباري به.

- هلم بنا إليه بحقك.

فيأخذ الحراني بيد صاحبه، فيخرجان من درب قدر إلى زقاق
كربه الرائحة حتى يصلا إلى غربي المدينة؛ فيظهر لهما بناء شامخ
كأنه الحصن، وحوله الحدائق المزهرة، والرياض الباسمة، فيشير
الحراني إليه ويقول: هذا هو القصر المسمى بالمنظر، وهو قصر
ابن سبأ صاحب عدن، والقائم بدعوة الفاطميين فيها، وخير لنا أن
نذهب إلى الباب الخلفي؛ خوفاً من أن نلتقي بالأمير.

دخل الشيطان من الباب الخلفي، فقابلهما غلام لمفلح لا
يتجاوز الخامسة عشرة، وسيم الوجه، صبيح الطلعة، امتزج فيه الدم
العربي بالهندي، فأخرج هذا الامتزاج للناس صورة من الانسانية
بديعة رائعة، فسأل الحراني عن صديقه (مفلح)؛ فأجلسهما الغلام في
حجرة، وذهب لدعاء صاحبه، وأقبل مفلح وكان رجلاً في الأربعين،
وقور السميت، جميل الوجه، يلبس من الحرير والديباج ما لا يجد
طريقه إلا حول أعطاف الملوك؛ فحيا الحراني وصاحبه في تجله
وإكرام، وانتقل الحديث إلى جو عدن، وشدة حرارته، وما سيصيب
الناس في هذه السنة من الجذب؛ لامتناع المطر، وقسوة الجفاف.

وبعد قليل قال له الحراني: أيتفضل سيدي بأن أستفسر منه في
خلوة عن أمر أراه خطيرًا!؟

- نعم نعم، وكرامة.

ثم يأخذ مفلح بيده إلى حجرة أخرى، ويغلق بابها ويقول: ماذا
تريد أبا الكاظم؟ إنني لا انسى لك فضلك في شرح كثير مما التبس
عليّ فهمه من مذهب الشافعي، ولم أجد من فقهاء زييد من هو أكرم
للسر، وأرعى للأمانة منك، فلو علم ابن سبأ حقيقة مذهبي ما أبقى
رأسي بين كتفي.

- يا سيدي، لقد وضعت سرّك عند شقيق روحك، نجّي نفسك،
وكانك والله ما نقلته إلا من ناحية صدرك اليمنى إلى ناحيته
اليسرى... إننا لا نزال يا سيدي نأمل لك عزًّا كبيرًا، ولا نزال
نأمل أن تتقوى السنة وتظهر، لنراك زعيمها المرجّي، والملك
الحاكم المسيطر في هذه البلاد.

- تلك آمال أبا الكاظم.

- آمال وستحقق إن شاء الله... أجا عمارة بن زيدان لمقابلة
ابن سبأ هنا بالأمس؟

- نعم، وقد كان معه علي بن مهدي، ففضوا وقتًا طويلاً في
حديث طويل.

- أعتقد أنهم كانوا في مفاوضة بشأن أحوال الحكم في اليمن؟
فابتسم (مفلح)، وهزّ بلطف كتف الحراني وقال: إن عمارة
شاب طموح، يريد أن يكون زبيباً قبل أن يكون حصرماً.

- أسمعت بعض ما قالوا يا سيدي؟

فأطرق مفلح مليًا، ثم رفع رأسه وقال مترددًا: الذي فهمته من كلمة تتناثر هنا، وأخرى تسقط هناك، وثالثة يرتفع بها الصوت قليلاً: أنهم كانوا يتحدثون في شأن زبيد.

- ماذا سمعت بالله يا مولاي؟ فإن حياتنا وآمالنا معلقة بما ينقض هؤلاء ويبرمون.

- سمعت ما يفهم منه: أن فاتكًا ملك زبيد عدو للفاطمية، وأنه يجتهد في إمارة دعوتهم، وأن ابن سبأ قد يجهز عسكريًا بقيادة علي بن مهدي؛ لمحاربته والاستيلاء على المدينة، على أن يسبقه عمارة إليها للتمهيد لهذا الغزو، واجتذاب القبائل إلى ابن مهدي، وأن يقلد ابن مهدي حكم زبيد بعد زوال فاتك، وأن يكون عمارة شريكه ونائبه في الحكم، ثم رأيتهم يتعاهدون على الكتمان، حتى تأخذ أهل زبيد الصيحة وهم نائمون.

- يا للداهية!! ضعنا بين جنون ابن مهدي ودهاء عمارة!

- كل شيء بقضاء وقدر يا شيخ، ولعلهم كانوا يتحدثون، واللوح المحفوظ يسخر ويقهقه!

- نحن لم نر اللوح المحفوظ يا سيدي، ولكننا نرى بين الرماد وميض نار، سيكون له تأجج وضرام، وليس لنا في رفع المكروه عنا إلا الله وأنت.

ثم استأذن الشيخان في الانصراف وخرجا، فقال النيلي: أراك عابسًا جازعًا أبا كاظم، فماذا قال لك؟

- ماذا قال لي؟ إني لم أسمع كلامًا، إني سمعت رعدًا وعزيفًا
وصواعق... إنها مصيبة جارفة... هلم إلى فندقنا، فإننا لا
نستطيع الكلام في الطريق.
- وصلا إلى الفندق واجمين، ودخلا حجرتهما، وأغلقا بابها،
وحدث الحراني النيلي بما سمعه من مفلح، فاكفهرَّ وجهه وقال:
ضعنا وضاعت زبيد.
- الرأي عندي: أن أذهب الليلة مستخفياً إلى زبيد، حتى إذا
نزلتها أخذت سمتي قدماً إلى قصر فاتك، وطلبت مقابلته
وحده، حتى إذا نفضت إليه جملة الخبر عدت من ليلتي غير
متوان، ولا معوق... سأرحل الآن.
- ثم قام وذهب إلى سوق البزازين، فاشتري إزاراً ورداء، حتى
إذا لبسهما لم يكن يميّز من أعراب البادية، وودع النيلي، وذهب إلى
محط القوافل ليستأجر جملاً إلى زبيد.

الفصل الثالث

امتطى الحراني جملاً شديداً الأسر، موثق الخلق، مارس الصحراء ومارسته، وتحذته بوعورتها، وبُعد شقتها، فتحداها بصبره وشدة جلده، حتى لقد أصبح الضرب في الفيافي جزءاً من حياته، لا يكاد يجد له ألماً، أو يشكو منه عنتاً! سار الحراني وقد لفه الظلام برداء السواد، طرز بثواقب النجوم، سار في صحراء لا يسمع بها إلا عواء ذئب برّح به السغب، وشفه الظماً، ولا يري فيه إلا تهاويل من خيال، دميمة الوجوه، فاعرة الأفواه، تتراقص أمامها كأنها تستهويه إلى موت محقق، وكان الحراني متجهماً الوجه، منقبض الصدر، مضطرب الفكر، يخشى أن يكون بغض أسرة زيدان قد جاوز به حد الحزم، ودفع به إلى مالا يجمل بالحدز الحريص، وكلما صور الحوادث التي زلقت بها رجله، وزجه فيها حقه، رأى أنها لم تكن من الإحكام ودقة التدبير بحيث يرضى عنها دهاؤه، أو يستسيغها ذوقه الفني في نصب الأشرار، وابتداع الجرائم، وقد كان في تناول ذكائه من ضروب الحيلة وأساليب المكر ما كان أدق صنعاً، وأبعد

عن العقول إدراكاً، وأخفى على الباحث المنقب، ماذا فعل؟ وماذا قدّر؟ وماذا دبّر؟ مكيدة مكشوفة مهتوكة الستر، كأنها عبث أطفال، لقد نال من عمارة، وانتقصه أمام الحضرمي، وهو له أصدق صديق وأوفي خليل، فإذا أصاب آل زيدان من فاتك أذى أو ضرر كان من الهين السهل أن تتجه العيون إلى الحراني، وأن تشير إليه بالأكف الأصابع، ثم ماذا فعل بعد هذا؟! بين الرجال والنساء، فلا شهامة الرجل نال، ولا بدهاء المرأة ظفر، ثم إن الذي يفرط في سر سيده _ وهو سر دولة _ أجدر بأن يهب ما في صدره مسئولاً أو غير مسئول، وأن يبعثر ما في نفسه في الأسواق على أن هذا الغر الأحمق مفتون بشيء اسمه السنية عدو خفي للفاطمية.

وبنو زيدان أقوى قبائل اليمن، وأشدّها تمسكاً بالمذهب السني، فليس في مجال الوهم ببعيد أن يبعث إليهم هذا الجاهل رسولاً، يخبرهم بما كان من زيارتي، وزيارة النيلي لداره، ثم إن ما بيني وبين علي بن زيدان من الثأر القديم كفيلاً بأن يحمله على الاعتقاد بأن لي في هذه المكيدة يداً، وأني كنت أول ساع بعمارة عند فاتك، وأول مؤلب عليه، حقاً إنها دسيسة لم تحكم أطرافها، ولم تستر فخاخها، ولكن ماذا أعمل الآن، وقد انطلق السهم الطائش؟! ألا سحفاً لعلي بن زيدان، لقد كان ما أوقعه بأبي منذ سنين من شديد العقاب والخزي الدائم سبباً لهذا الحقد الذي يملأ صدري على أسرة زيدان، وكل من يتصل بها.

وماذا كان فعل أبي في شبابه؟ أحب فتاة من حيهم وأحبته، فأبوا أن يزوجه إياها كبراً وصلفاً؛ لأنهم يرون الناس جميعاً دونهم،

ولأنهم لا يصاهرون إلا من كان من قبيلتهم، كأنهم يخشون على هذه السلالة الطاهرة أن تدنس بغير نسبهم، وكان يجدر بأبي سامحه الله أن يقابل كبرهم بمثله، وأن يخضع تلك النزوة الطائشة التي يسمونها بحب لسلطان الكرامة والاعتزاز بقومه وقبيلته، ولكنه لم يفعل، واختطف الفتاة من خباثتها في ليلة سوداء، فأحس به القوم فأدركوهما، وقتلوا الفتاة، وهموا بقتل أبي، ولكن شريراً حقيراً أشار بأن يستبقوه لحياة هي شر من الموت، أشار بأن يبقى حياً، وأن يوصم وصمة اللصوص؛ فاستطابوا الرأي، وأوقدوا النار، ووسموه فوق جبهته وفوق خديه بعلامات يوصم بها السراق وقطاع الطريق، ثم تركوه في الصحراء يئن من الألم، ويئن من الخزي والعار. ووالله ما جلست بعد هذا اليوم مجلساً، ولا سرت في طريق إلا وكأني أرى جميع الأصابع تشير إلي: هذا ابن السارق الموصوم! لا... لا... لا بد من الانتقام من آل زيدان، كيفما كانت قوتهم، وكيفما كان عديدهم، وسأخذ من ضعفي قوة للكيد لهم والوثوب عليهم؛ إن البعوضة لا تنال باليد، ولكنها تطن وتلسع، فإذا حاول من لسعته قتلها لطم خديه، وهذا عمارة صيد سهل، سريع الوقوع في الشرك، فإن ما جبل عليه من الصراحة والطموح والتهور في طلب ما يريد كفيل بأن يوقعه في أهون الدسائس حبكا.

كان الحراني ينجي نفسه وهو حزين مطرق، تتتابه الأفكار، ويؤلمه طائف الذكريات، ويقبضه الخوف من الإقدام فيبسطه الحقد وشهوة الانتقام، وهو بين هذا وذاك يتسمع أحياناً لصوت ضئيل خافت يهتف به ضميره، أو ما بقي له من ضمير، فيقول: ما هذا

الذي أنت فيه أبا كاظم؟! وما هذه العريضة التي ستعود عليك نكالاً
ووبالاً؟! أنت تقف أمام أسرة زيدان! وأنت تكيد لها! وأنت
تنصب لها الحبال! لقد جاوزت طورك، وقذفت بنفسك بين براثن
الأسود! وألقيت بيدك إلى التهلكة، إن عبد من عبيد آل زيدان
وحده عسي بأن يقضي عليك وعلى أولادك وأهلك، من غير أن
يترك لفعلة أثرًا، إن أباك مات منذ حين، ودفن معه عاره، ونسي
الناس تلك العلامات البشعة الدميمة التي كانت تشوه وجهه، وطوي
ذلك السجل المشؤم، سجل الذل والخزي والشار. ما لك تنبش
الماضي؟! وكلما نبشته ملأت جيفته الجو خبثًا. أنت تعادي آل
زيدان!

هذا إذا عادت النمال الجبال، وصاوت الكلاب السحاب!
عد إلى صوابك أبا الكاظم، ثم عد من حيث أتيت، واغسل
تلك السخائم التي سودت صدرك بماء من التسامح والغفران، واقتل
تلك الحيات التي أكلت قلبك، وأقضت مضجعك بسلاح من الصفح
الجميل، فإن الحاقدينال من نفسه فوق ما ينال من عدوه، وهو
أشبه بالنحلة تلسع وتموت، والسهم يقتل ويتحطم، لم لا تعود إلى
علمك ودروسك أبا كاظم، وإلى الضحك من ذقون الناس، فتال من
عقولهم وأموالهم، وتعيش بين أهلك هائنًا سعيدًا؟ دع الدسائس،
ودع النمام، فإن من أكثر من إيقاد النار يوشك أن يحرق كفيه.
إن حديث أبيك مضى وانقضى ذكره، ولا يعرف الجيل الجديد
عن الحراني إلا أنه شيخ المتأدبين، وزين المحافل، إن في الحياة
أمرًا كثيرة علاجها النسيان، والجرح إذا أكثر من حكه التهاب

ونغل، الو زمام بعيرك أبا كاظم، وعد إلى زبيد، وتجنب فيها مواطن
الشبهات حتى تهدأ الفتنة، وتسكن هذه الثائرة، ما لك وللنيلي! وما
لك ولا بن مهدي! وما لك لفاتك! كل هؤلاء لا يستطيعون أن يدفعوا
عنك شر بني زيدان. أنت تدعي الحزم، وهذا هو موطن الحزم.
أتسمع؟ ولكن الحراني كان في ثورة من الغل غظت على عقله،
فصاح: لا أسمع، ولن أسمع، ولن أترك عمارة، ولن أترك آل زيدان،
سأنتقم لأبي، وسأذهب إلى فاتك، وسأكشف إليه سر المؤامرة، ولن
يصدني عما اعتزمت عليه صاّد مما يسميه الناس عقلاً أو حزمًا.

ثم رفع الحراني رأسه كما يرف الغائص رأسه من الماء بعد
طول المكث فيه، وكأنه كان في عراق عنيف بينه وبين نفسه، خرج
منه ظافرًا منصورًا، فبدد الظنون، وقضى على الشكوك، ثم رمى
بعينه أمامه؛ فرأى في ضوء النجوم شبحًا يظهر ويختفي، مرة تبتلعه
الوهاد، وأخرى تلفظه الأكام، فحدد النظر، واستحث بعيره، فإذا
راكب يجدُّ السير! فخاف الحراني أن يكون الرجل من عبيد عمارة،
سبقه ليفتك به في الصحراء قبل أن يلقي بنميته، وظن الرجل حينما
رأى الحراني وراه أنه من رجال ابن مهدي

أسرع خلفه من عدن ليقضي عليه قبل أن يبلغ رسالته إلى
فاتك. وبعد قليل التقيا على رأس أكمة، وكلاهما خائف ومخوف،
فبدأ الحراني في خوف وتلعثم: السلام عليكم، لقد كنت أظن أن
الصحراء لم تحمل في هذه الليلة إلا جنينًا، فإذا هي تحمل توأمين.
- إن الصحراء كالليالي تلد كل عجيبة.

رأى الحراني في صوت صاحبه رجفة، وفي لمحاته ما يشعر
بالدعر، فقوى قلبه قليلاً، واطمأنت نفسه، وقال: ولكنها أحياناً
كالهرة تقتل بنيتها.

- إنها لا تقتل من أبنائها إلا الجبناء الرعايد، وإن من كان
قلبه أمضى من سيفه، وسيفه أثبت من قلبه، لن يموت إلا
ميتة الأبطال.

وكان الرجل لمح في الحراني ما يدل على الضعف، فتابع
الحديث بقوله: ولقد يكون من أسباب التسلية والقضاء على السامة
في الصحراء أن يصادق المرء فيها وحشاً يداعبه بسيفه، أو لصاً
فاتكاً يلقنه برمحه درساً في الأمانة وصون الحقوق.

- ليس بالصحراء لصوص، ولو كان بها الليلة لتاب إلى الله
على يد رحلي، بعد أن يراه أفرغ من فؤاد الجبان.

- إن الساري في مثل هذه الليلة يحمل ما يحرص عليه في
صدره لا في رحله، ولعل في صدرك من الأسرار ما هو أعلى
من الذهب النضار.

- من أين لنا أن نصل إلى الأسرار يا ابن أخي، وإن من ضاق
صدره بهموم الحياة أجدر بالأ يزيد ضيقاً بحفظ الأسرار.
من أين الرجل؟ وإلى أين أنت؟

- من عدن إلى الحديدة، أتجر بالإبل بين البلدين. وإلى أين
أنت؟

- إلى صنعاء أتجر بالثياب بين البلدين.

- أخشى يا صاحبي أن تكون من ثياب الرياء التي تشف عما تحتها، ولكن ما لنا ولهذا! عم مساء. ثم ألهب بعيره بالسوط، فعدا به ينهب الأرض نهبًا.

تنفس الحراني وأطال التنفس، وكادت تعود إليه وساوسه، لولا أن زجرها بالترنم بشعر البطولة، والاعتماد على النفس، والتشفي بأخذ الثأر، وما زال يطوي الصحراء وتطويه أيامًا، حتى بلغ زبيد في مساء ليلة، فسار قدمًا إلى قصر فاتك، فالتف عليه الحراس، وسألوه عن شأنه؟ فقال: إنه قادم من مكة برسالة من أميرها: قاسم بن هاشم إلى الأمير فاتك، وبعد قليل استؤذن له، فتقدم من الأمير، وقبّل يده، ثم أخذته الرعدة، وهاله ما هو مقدم عليه من أمر خطير، فأخذ يتمتم بكلمات متقطعة يفهم منها الإخلاص للأمير، والنصح له، والاستهانة بالموت في خدمته؛ فهدأ الأمير من نفسه حتى

أفرغ يده وثبت جأشه، ثم قال فاتك: كيف حال أمير مكة؟ فعاد الذعر إلى الحراني، وطفق يفرك أصابعه في اضطراب عصبي عنيف، ثم قال: لم أجد من مكة يا سيدي، وإنما جئت من عدن.

- لم تجئ من مكة؟! هذه أول أكذوبة للمخلص لنا، المستهين بالموت في خدمتنا.

- إنما دعاني إلى الكذب يا سيدي خوف أعدائي فقد يكون بقصرك عيون لهم.

- إن قصري أظهر مما تظن، وخدمي أعفّ وأشرف مما تصفهم به، أخشى يا رجل أن تكون من هؤلاء الدساسين، الذين يلبسون مسوح الزهاد، ويتقدمون بالنصح للأمراء ليجعلوا

منهم آلة للبطش بأعدائهم، إن بابي هذا يطرقه كل يوم كثير من أمثال هؤلاء، حتى لقد التبس عليّ الحق بالباطل، وكدت أغفل عن شئون الناس بالنظر في شئون هؤلاء الخادعين، والتحقق من أكاذيبهم، فإن كنت فقيراً أعطيناك، وإن كنت مستجيراً بنا أجرناك، وإن كانت لك ظلامة كشفناها، قل الحق يا رجل كن صريحاً، ولا تنل من أحد في حضرتي.

- إنني لم أجد يا سيدي لأطلب مالا، ولا لأبتغي على نصيحتي للأمر أجراً، ولكني علمت بمؤامرة ذنيئة تدبر لإسقاط الأمير عن عرشه وعرش آبائه، فأسرعت إليه من عدن أطوي الليل بالنهار، وللأمر بعد ذلك ما يشاء، إما أن يصدق ما أقوله، فيتخذ الأبهة، ويُعدّ العدة؛ ليدفع الشر بالشر، وإما لا يصدقه فيعرف بعد طول الندم أنني كنت صادقاً مخلصاً

- وما تلك المؤامرة؟!!

- المؤامرة: أن يفاجئك علي بن مهدي، ومعه عمارة بن زيدان بجيش جرار، فيستولوا على زيد، ويقتلا أميرها، ويبيدا أهله ونصرائه، ثم يجلس ابن مهدي على عرش المدينة، ويجعل عمارة وزيره ومشيره، هذه هي المؤامرة فصدقها أو كذبها، اللهم إني قد بلغت ونصحت!

- صدقتها، وقد جاءني قبلك رسول من قبل (مفلح) خادم ابن سبأ يبلغني أمر هذه المؤامرة على النحو الذي شرحت.

- إذا هو الرجل الذي صادفته في طريقي. مفلح أرسله؟ هذا المفلح غربال أسرار!

- إنه رجل يكتم إيمانه بالمذهب السني، ويحارب الفاطمية في الخفاء بكل ما يستطيع. آه! عمارة في المؤامرة...؟! ويل له مني، وويل لقومه بني زيدان، ثم دعا خادمه، وأمره بإحضار صرة بها مائتا دينار، فأعطاها الحراني، وشكر له حسن بلائه. خرج الحراني يتعثر خائفاً من الشر الذي زجَّ بنفسه فيه، وهو يرجو ألا يراه من يعرفه، ولكنه وهو في أحد دهاليز القصر، رأى اسماعيل بن محمد جليس فاتك مقبلاً_ وكان من أصدقاء عمارة وخلصائه_ فعرفه إسماعيل، ودهش لما رأى من تغير زيه، فقال: خير ما جاء بك إلى القصر أبا كاظم؟ ولم هذا الزي الغريب؟! فبهت الحراني، وتلعثم وجف ريقه، وقال: جئت في نصيحة للأمير، وأرجو أن يبقى الأمر بيننا سراً.

- إذا جئت في نصيحة فأدعو أن تكون خاصة لوجهه! أما السر في زبيد فكالسر في صدر المرأة، تفشيه لكل من تقابله بعد أن توصيه بكتمانه! عم مساءً أبا كاظم، فإني لا أرى في زيِّك وأسارير وجهك ما يبشر بخير.

انصرف الحراني وهو يلعن إسماعيل بن محمد، ويلعن المصادفة التي أوقعته في طريقه، ويلعن نفسه على ما اندفع إليه من أمر لا يستطيع الخروج منه سالمًا.

ودخل إسماعيل على فاتك، فرآه يهدر كالبعير الصائل، وقد استأثر به الغضب، فحينما رآه صاح بصوت خشن أجش: أرأيت كيف انتهت بنا الدسائس والمؤامرات؟! أرأيت كيف يعمل هؤلاء الفاطميون أعمالهم في ظلام الخبث والرياء، ثم يفجأون بها الوادعين

الآمنين؟! أعلمت أن ابن مهدي ذلك الرافضي السفاح، سيدهم زيد على حين غرة منا ليدل رقاب أهلها، ويثُلَّ عرشنا وعرش آبائنا؟ أعلمت أن عمارة بن زيدان ذلك اللثيم النذل، الذي أغدقنا عليه، وآويناه حتى أصبح من المقربين في القصر، ومن كبار رجال المال والجاه، هو الذي يمالئه ويغريه، ويرشده إلى مواطن الضعف ليكون وزيره في زييد! ويل للخائن المخاتل، دخل القصر فقيرًا مملقًا، لا يتشفع إلا بأبيات واهنة من الشعر، فما زال يخدعنا بمدائحه، ويستهوينا بعذب كلامه وسحر حديثه، حتى رفعناه بعد ذلة، ويل لعمارة... ويل لعمارة...

- هدى من غضبك يا سيدي، فقد يكون ما وصل إليك نسيمة أفك أثيم، وعمارة رجل...

- لا يا إسماعيل إن الخبر، وصل إليّ من مصدرين، إن شككت في أحدهما فلن أشك في الآخر، جاءني به رسول من (مفلح) ثم نقله إليّ الآن أعرابي لا أعرفه، وكانت الرسالة واحدة لا تكاد تختلف.

- إن الأعرابي الذي يذكره مولاي عالم من زييد غير زيّ، ولعل له ماربًا في الكيد لعمارة.

له مارب أرب ليس له مارب، إن رسالة (مفلح) تكفيني، ثم نادى خادمه، وأمره أن يدعو إليه الوالي، وقائد جيشه، فلما حضرا أمر القائد بجمع الجيش، واستكمال العدة، والأخذ في تحصين مواضع المخافة من المدينة، ثم أمر الوالي بمصادرة جميع أموال عمارة، وما له من ناطق وصامت، والقبض عليه وقتله أينما كان، وحيثما وجد.

مرَّ إسماعيل بن محمد في صباح هذه الليلة بسوق البزازين، فرأى علي بن زيدان يمشي ووراءه عبيده وخدمه، فدهش لرؤيته، وتقدم للسلام عليه، ثم اجتذبه إلى ناحية، وقال: لقد نقل بعض الجواسيس إلى الأمير فاتك أمس نبأ مؤامرة تدبر لاغتصاب ملكه وقتله، وأن لابن أخيك عمارة يدًا طويلة في هذه المؤامرة، فأمر بمصادرة أمواله، وأهدر دمه، وقد حاولت أن أسكت غضب الأمير، فلم أستطع.

- إنها دسيسة علي ابن أخي، إن عمارة أشرف وأنبل من أن يندس بهذه الأقدار. نحن نقتل في الضياء، ولا نقتل في الظلام، ومن هذا الجاسوس الذي نقل هذه الفرية؟
- رجل من زييد يسمى أبا كاظم الحراني.
- الحراني! الحراني! لعله ابن الحراني لص الأعراس الذي وسمنا وجهه بميسم العار منذ أكثر من عشرين عامًا؟!
- أظنه قضى كل هذه المدة في انتظار الفرصة، حتى إذا لاحت اقتنصها ليشفي صدره بهلاك ابن أخيك، أيعرف عمارة هذه الحادثة؟
- لا، لقد أمرت عبيدي الذين اشتركوا في الحادثة أن يبقوا الأمر سرًّا دفينًا، فإن مثل هذه الفضائح يجب ألا تداع، هل لهذا الحراني ولد؟
- له ولد في الخامسة والعشرين من عمره، يتجر في الغنم، ولم تسأل عن هذا؟

- لا لسبب، غير أنني كنت أظن أن من ذاق حلاوة الأبوة يتردد في إيذاء الناس في أبنائهم.

- وعلام عوّلت؟

- عولت على السفر إلى مرطان في الغد، ويفعل الله ما يريد.

ولما انصرف إسماعيل، عاد ابن زيدان مع عبده إلى الفندق الذي نزل به، ثم اختلى بعبده مرداس، أفطس الأنف، يخالط بياض عينيه حمرة قاتمة، فقال له سيده: يا مرداس، سنسافر غداً؛ فمر العبيد بإعداد الرواحل، أما أنت فستبقى هنا، ولن تعود إلى مرطان حتى تقتل رجلين: الشيخ الحراني، وابنه، وابتح عنهما، واستدرجهما من حيث لا يشعران إلى مكان لا يراك فيه أحد، ثم اقتلتهما فإذا قتلتهما فأنت حر، أفهمت؟ اذهب.

وفي صباح الغد يسافر بن زيدان، ويبقى مرداس بزبيد، يسأل ويبحث حتى يعثر بابن الحراني، فيدخل عليه بحيلة محكمة، يستهويه بها، حتى إذا خرج إلى ظاهر المدينة وانفرد به في مكان موحش، قتله واختفى.

ويبقى الحراني منتظراً عودة ابنه فلا يعود، ثم يعثر بعض المارة بجثته في الصحراء، ويصل الخبر إلى أبيه، فيعصف به الحزن، ويتملكه الجزع، ويرى والدموع تتساقط من عينيه أن ما أصابه في ابنه إنما هو جواب رسالته لفاتك، وانتقام سريع من آل زيدان على إيقاعه بابنهم عمارة، وأنهم لن يسكتوا عنه، وأن ذراعهم ستمتد إليه بعد أن امتدت إلى ابنه، وأنه يجب أن يفرّ بنفسه وأهله بعيداً عن اليمن؛ فيجمع بقية ما لديه من مال، ويركب مع أهله سفينة من زبيد

إلى جدة، ليأخذ منها سفينة أخرى إلى مدينة القلزم (السويس)، فقد رأى أن مصر خير مكان ينجيه من آل زيدان، ورأى أن يختفي بها رابضاً حتى تحين له فرصة الوثوب.

الفصل الرابع

حينما غادر الحضرمي دار ابن مهدي، سار وحده في الطريق، واتجه نحو دار عمارة، فوجده لا يزال نائمًا، حتى إذا استيقظ حدثه بما دار في مجلس ابن مهدي من حديث، وبما قاله فيه الحراني والنيلي.

فهزَّ عمارة كتفيه استخفافاً، وقال: من الحراني هذا؟ فإني لا أعرفه، وعجيب أن يحقد عليّ من لا أعرف!!

- إنه رجل من الفقهاء الجوالين، لا يعرف صبحه أين يستقر في مسائه، ولكنه فيما يظهر من عينيه، شديد البغض لك، والحدقد عليك، فأجاب عمارة، عجبي من صعلوك ينافس الملوك!

- هذه كلام تشم منه رائحة الإمارة!

فابتسم عمارة في ألم واستنكار، وقال: لا يا أسامة... إنه كلام رجل يحب العدل، ويكره الظلم والظالمين... رجل نصب نفسه لنصرة الحق، فوهب له دمه وأهله وماله، لا يهاب في سبيله _ إذا جد

الجد_ أشفار السيوف ولا أسنة الرماح... رجل إذا وفي لقوم نافح عنهم، وكافح دونهم، حتى يحبس الموت لسانه، ويعطل ساعده.

- وقد يحتال أحياناً، ويلبس لكل حالة لبوسها.

- وقد يحتال أحياناً يا أسامة، وقد يمدح أحياناً من يصغر عن

الهجاء، رجاء الوصول إلى الغاية التي رسمها لنفسه، وقد

يصانع أحياناً أناساً أقل ما يستحقون ضرب السياط... متى

ترحل إلى زبيد؟

- بعد عشرين يوماً، حتى أبيع جميع البنّ الذي جئت هنا لبيعه.

- ربما رحلت بعد عشرة أيام، فإن الحر هنا لا يطاق.

وبعد عشرة أيام أو نحوها، قامت القافلة إلى زبيد، وكان بين

المسافرين عمارة بن زيدان، وبعد ليل بلغت القافلة أسوار المدينة،

وكان وصولها عند الغروب فاتجه عمارة نحو بيته، وبينما هو في

طريقه مرّ به القائد إسماعيل بن محمد جليس الملك فاتك، وكان

راكباً فرساً، فلما رآه أخذ يقرأ: (يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ

لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ).

فأسرع عمارة إليه، وأخذ بعنان فرسه، وقال: بحق مودتي

عليك، إلا ما أفصحت يا ابن محمد!! فقال: أحاط فاتك بجميع

أموالك وتجاراتك، وجعل لمن يأتيه برأسك ألف دينار.

- ولم فعل هذا يا ابن محمد!؟

- هبط عليه نمام أثيم من عدن، فنقل إليه أنك تتآمر أنت

وابن مهدي وابن سبأ على قتله، واستلاب ملكه... ارحل أبا

محمد... وأسرع، واتخذ الليل مركباً.

فدقَّ عمارة بكفِّ على كفِّ، وقال: لقد أصابتني عين الحفائلي_ عليه لعنة الله_ فلطالما قال لي: أنت من كبار التجار... أنت من أصحاب الوجاهة... عمارة بن زيدان اليمني الشريد الطريد. قاتل الله العلم والأدب!! فإن عقارب الحقد لو أرادت أن تتخذ جحرًا ما اختارت لها إلا صدور الأدباء.

ثم أسرع عمارة إلى داره، وجمع متاعه، وما بقي لديه من مال قليل، وأعد لأهله وأولاده أربعة من الإبل، وألحَّ على الجمال أن يسرع في السير، فقال الجمال: إلى أين؟ قال: إلى مكة... إلى أم القرى... إلى البيت الحرام الذي من دخله كان آمنًا.

وصل عمارة وأهله إلى مكة فقيرًا بائسًا، بعد أن كان في بسطة من الرزق، وظل من السعادة، يعيش عيشة الترف، ويتقلب في أكناف العز والنعيم، فاكترى دارًا بالقرب من البيت الحرام، وأخذ ينفق على أهله في ضيق وشدة مما بقي له من مال، انتشله من يد الزمان، وجلس ذات يوم في المسجد، وبدأ درسًا في التفسير، فأقبل الناس إلى الاستماع له، فسحروهم ببيانه وفصاحته، وقوة عارضته، ورنين صوته، فتحدث أهل مكة بالشيخ اليمني، وسار ذكره، وتنقل اسمه من لسان إلى لسان، وأقبل عليه عظماء مكة كبار تجارها، يبذلون له ودهم، ويتسابقون إلى إكرامه بالهدايا والأموال.

بقي عمارة على تلك الحال أشهرًا، وفي أصيل يوم وهو في داره، أقبل عليه رسول أمير الحرمين_ قاسم ابن هاشم_ يدعوه إلى لقاء الأمير.

فلبس خير الثياب وتطيب، وأخذ يحدث نفسه ويقول: ليت شعري لم دعاك ابن هاشم؟ لقد جربت معايشة الأمراء والملوك فلم تعد منها إلا بصفقة المغبون! ولكنك يا عمارة لم تخلق لتلقي درسًا في المسجد على أغرار مهازيل... إنما خلقت لتكون زعيمًا، ولتترك في الدنيا دويًا... ولا بد لهذا من صحبة الأمراء والملوك، سر إليه يا عمارة، فلعل الدهر أراد أن يستغفر ذلته! ولعله _ وأنت من أبنائه _ أراد أن يؤدبك تأديب الآباء لأبنائهم!! ثم عاد فأدركه عطف الأبوة وحنانها. سار عمارة حتى بلغ دار الأمير، فاستقبله عبيده وخدمه، وأوصلوه إلى حجرة ثمينة الأثاث، أنيقة الترتيب.

حتى إذا استقر به المجلس، أقبل الأمير بحاشيته ورجاله، فحياه عمارة في أدب وخشوع.

وأمره ابن هاشم بالجلوس، فجلس بعيدًا، فدعاه للجلوس إلى جنبه، وأقبل عليه يسأله عن حاله، وكثير من شؤونه، ثم قال: إننا هنا لا نرى الدنيا إلا في موسم الحج، حتى إذا انقضى الموسم عدنا إلى عزلتنا، كأننا في صومعة راهب.

فقال عمارة: هذه يا مولاي نفحة من نفحات البيت الحرام، وبركة من بركاته، ألا ترى أن الدنيا جميعًا تسعى إلى أهله وهم لا يسعون إليها؟! هنا يا مولاي نرى جميع أمم الأرض في أحسن أحوالها... نرى هنا: اليمني، والمصري، والمغربي، والعراقي، والهندي، وأبناء كل قطر، ترف عليهم راية الإسلام، هنا البحيرة العظمى المقدسة التي تصب فيها أنهار الدين القيم الحنيف... هذه

يا مولاي دعوة إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حين قال: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

- حياك الله يا شيخ! إن لحديثك لسحراً! ولو أن علماء الإسلام

كان لهم هذه البيان الرائع، وتلك القوة النادرة في التفكير، واتجهوا إلى هداية الناس وإرشاد الأمراء لكان للإسلام شأن غير شأنه اليوم... أزرت مصر يا مولانا الشيخ؟

- لم أزرها يا مولاي، وقد عزمت على مجاورة بيت الله الحرام، حتى ألقى الله على عتبه.

- لا... لا... أنت لا تزال في قوة شبابك، ومثلك _ فيما أرى _ من تضيق بآماله الدنيا إذا اتسع بها صدره.

حدثت في العام الماضي بموسم الحج بعض حوادث صغيرة للحجاج المصريين، بلغت إليَّ في حينها فلم أبه لها، ولكن يظهر أن الخلافة الفاطمية بالقاهرة، قد عدت وقوعها تعدياً عليها، لذلك منعت في هذا العام الصدقات التي كانت تبعث بها لفقراء مكة، والمنقطعين إلى مجاورة البيت.

- ماذا كان نوع هذه الحوادث يا مولاي؟

- حوادث تافهة! أغار بعض خدمي على التجار المصريين، واستلبوا جميع أموالهم.

- حقاً إنها حوادث تافهة! وما مقدار ما كان يرسله الخليفة إلى مكة في كل سنة من الصدقات؟

- كان يرسل عشرين ألف جريب من الحنطة، ومائة ألف دينار.
- هذا مقدار عظيم.

- نعم هو مقدار عظيم، أحس أهل مكة بفقده، وقد جاءني
وكيلي منذ أيام، يرجوني في عمل شيء لاسترضاء الخليفة
الفاطمي، ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك، وقد
توسمت فيك مما سمعت ورأيت أنك خير من يستعان به في
مثل هذه الأمور.

- إنني طوع أمرك لولا...

- لا تقل (لولا)؛ فإنني أعددت لك خمسمائة دينار، تعصف
بكل ما تجره (لولا) من معاذير، ثم إنني أعددت الرواحل لك
ولأهلك، وأمرت أن تصرف لك مئونة السفر بسعة وإغداق...
أرضيت أبا محمد؟

- رضيت يا مولاي شاكرًا.

- تذهب إلى سيدة القصور: عمه الخليفة الفائز، وإلى وزيرة:
طلائع بن رزيك، وتلقي إليهما بسحرك، وما وهب الله لك
من فصاحة وبيان، وقوة حجة وبرهان، وكلما زاد ما يرسلان
به إلى البيت الحرام زدناك.

- وهل لسيدة القصور شأن عظيم في إدارة شئون الدولة
الفاطمية؟

- لها كل الشأن: فهي العقل المفكر، واليد الباطشة، ولها فنون
من الحيل والخداع يعجز عن إدراكها أذكىء الرجال، ثم
إنها تتخذ من أنوثتها ستارًا لدسائسها، ومن جمالها البارع

شباكًا لاقتناص أعدائها، فقد سمعت من حجيج مصر: أنها في الحسن والرشاقة واجتذاب العقول آية الله في خلقه، وأنها فتنة لكل من رآها، ولا يزال العهد قريبًا بما كان من قتل نصر بن عباس لابن أخيها الخليفة الظافر، وفراره وفرار أبيه عباس الصنهاجي إلى الشام أتدري ما فعلت سيدة القصور؟ لم تبك كما تبكي النساء، ولم تضرب كفا بكف كما تفعل العجائز، ولكنها أرسلت رسلها إلى قائد الإفرنج بعسقلان، ومعهم مائة ألف دينار على أن يقضي على عباس وابنه؛ فقتل القائد عباسًا، وأرسل ابنه نصرًا إلى سيدة القصور، وأظنه الآن في طريقه إلى القاهرة.

- إنها حقًا امرأة داهية!

- فوق ما تظن! والخليفة الفائز الآن في يدها، وهو صبي لا تزيد سنه على ست سنوات، وهي لذلك تلعب برجال الدولة، هذا مرة، وذاك أخرى... فاحترس منها أبا محمد.

- وما حال الوزير طلائع بن رزيك معها؟

- لا أدري... ولكنه لا يقل عنها دهاءً وخبثًا، وسنشهد قريبًا صراعًا بين ثعبانين.

وهناك رجل آخر أعيدك بالله منه ومن مكره ومحاله: هو مؤتمن الخلافة، خادم الخليفة وسيدة القصور، ورئيس الخدم والجنود السودانية. هذا رجل لو أراد إبليس أن يتخذ له خليفة في الأرض ما اختار غيره... فاحذره أبا محمد!

ثم قام وفتح الخزانة، وأخرج منها صرة بها خمسمائة دينار،
فناولها عمارة، وقال: متى الطعن؟

- كما تأمر يا سيدي.

- بعد ثلاثة أيام... اكتب عن لساني كتابين: أحدهما للفائز،
والآخر لابن رزيك، يمتزج فيهما الاستعطف بالعتاب،
ويلتبس فيهما الاستجداء بالشمم والإباء.

أنت تعرف أبا محمد كيف تكتب مثل هذا... عم مساء.

الفصل الخامس

وصل الحراني إلى القاهرة بعد أن أجهده السفر، ونال منه بعد الشقة، إلى ما كان ينتابه من أحزان على ابنه، وأحقاد على عمارة وأهله، وهو بين هؤلاء وأولئك مطرق الرأس دامع العين، يدركه الضعف فيرجع ويحوقل، ويثور به الغضب فيهز قبضته في عنف وقوة، لا... لا... لن أبكي بكاء النساء، ولن أستكين استكانة الإماء، وهذه اليد التي لم تخلق لهز السيوف، ولا للعب بالرماح، أعاضني الله بها عقلاً يهزم الجحافل، ويدك المعافل، ولأمر ما يقول المتنبّي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان

ولأمر ما يقول:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى إلى شرف من الإنسان

إن المستعين بالقوة يحارب بسلاح مكشوف، والمستعين

بالعقل يحارب بسلاح خفي مستور، وصاحب القوة قد يزل فيهزم،
وصاحب الحيلة إن أخطأ استطاع أن يتدارك خطأه بحيلة أخرى،
وصاحب القوة يتقيه عدوه فلا ينال منه منالاً، أما صاحب الحيلة
فهو صديق عدوه، وموضع أمانته ومكان ثقته.

إن الله خلق الإنسان، ومنحه القدرة على التشكل، فهو يستطيع
أن يكون أسداً، ويستطيع أن يكون ثعلباً، ويستطيع أن يكون ثعباناً،
ويستطيع أن يكون ذبابة تطن وتطير، فلم لا نتشكل؟ ولم لا نقابل
كل حالة بحيوان مما في أنفسنا؟ إن البُله هم الذين لا يستطيعون
أن يستروا غضبهم بالضحك، وحنزهم بالسرور، وكراحتهم بالبشاشة
والتسليم، والعاقل هو الذي يستطيع أن يقف أمام المرآة، بعد
أن يقطع الحبل بين وجهه وقلبه، ثم يصور ملامحه كما يشاء ويهوى.
تجول هذه الخواطر بصدر الحراني، فينتعش ويعود إليه
نشاطه، ويثوب إليه أمله في الحياة.

أنزل أهله بدار بحي الروم بالقرب من باب المحروق، وأول
شيء أوحى إليه به دهاؤه أن يغير اسمه، فسَمَّى نفسه زين الدين بن
نجا، وأن يظهر الزهد والقناعة والتبتل، وأن يدعي أنه من الطائف
بالحجاز، ثم رأى أن خير وسيلة تقربه إلى قلوب العامة والخاصة
أن يظهر غيرته على المذهب الفاطمي، وشدة التمسك به، وإذاعة
محاسنة وفضائله، فتنقل في المساجد والجوامع يخطب في فضل
المذهب، ومناقب آل النبي، وكان فصيح اللسان، قوي الحجّة،
حاضر البديهة، قصاصاً بارعاً، فكه الحديث جذاباً؛ فالتف عليه
الناس، وجاء بعض رجال القصر ليستمعوا إليه بعد أن طارت إليهم
شهرته، وكان أحفل أهل القصر به وأكثرهم ولوغاً: إبراهيم بن دخان

رئيس ديوان الرواتب بالدولة الفاطمية، وكان ابن دخان في نحو الأربعين، معتدل الطول، نحيف الجسم، أسمر اللون، له عيان شديد سوادهما، بيسراهما حول خفيف لم يذهب بما له من تأثير نافذ وقوة مسيطرة. وكان أنفه كأنوف أكثر المصريين، كاد يكون أفطس، لولا أن تداركه ارتفاع وبعض استواء في قصبته، وكان بشفته السفلى بعض الغلظ دفعها للتدلي قليلاً، وكأنه أحس هذا النقص، فهو لا يفتأ يجمع شفثيه كلما خطر له هذا الخاطر. وكان وجهه في الجملة يدل على الخطر والشهوانية، والختل والأثرة، وكان ابن دخان عارفاً بتاريخ مصر واسع الاطلاع فيه، وكان يحب مصر، أو يحب نفسه، ويحب المذهب الفاطمي، أو يحب نفسه، فكلما استطاعت مصر أن تدر عليه الأموال، وتهيئ له عيشة البذخ والنعيم، أحبها، وكلما استطاع المذهب الفاطمي أن يمنحه الجاه والنفوذ أحبه وناجح دونه. دعا ابن دخان مرة الحراني إلى داره أو زين الدين ابن نجا_ كما اختار أن يسمي نفسه_ وبعد أن نالا من طعام العشاء جلسا في روشن يطل على خليج أمير المؤمنين، وتنقلا في ضروب الحديث، فقال ابن دخان: كيف رأيت القاهرة يا سيدي الشيخ؟

- إنها اليوم زينة العواصم، وموئل الدين، وعش العلماء، وقبله الشرق.

- إن الفاطمية يا سيدي مظهر تلك العظمة، ومبعث ذلك الجمال، وإن مصر لم تر منذ عهد ابن العاص عهداً كعهد الفاطميين، فهو عهد رخاء وعدل، وطمأنينة وثروة، وابتهاج وسرور، أتعرف أن خراج الدولة لا يقل عن ألفي ألف ومائتي ألف دينار؟! وأن

ما ينفق على القصر ورجال الدولة، وفي الهبات وإظهار عظمة الملك، يزيد على ثمانمائة ألف دينار؟!!

- إن مصر يا سيدي هي الجنة التي وعد المتقون، أكلها دائم وظلها، وقد يدهش المرء لما يرى بها من كثرة الأمراء والطلاب، وكثرة ما يؤلف من الكتب في العلوم على شتى أنواعها.

- لقد كثر العلماء الوافدون على مصر، حتى تضاعف ما تنفقه الدولة عليهم، ولو كانوا جميعًا مثلك في الزهد والتقشف، والبعد عن المطامع الدنيا، ما أخذت عليهم مأخذًا، ولكن أكثرهم يفد للاستجداء، وانتهاب الغنائم والرواتب!

لم أدعك الليلة للتحدث في شأن الدولة، ولكني دعوتك للائتناس بك، والتمتع بمجالستك، ولأخبرك أن المشرف على خزائن الكتب بالقصر الحسين بن زيد قد انتقل إلى جوار ربه منذ أيام، وأني قد رأيتك خير من يصلح لهذا المنصب؛ لما عرف بين الناس من علمك، وفضلك، وتعصبك للفاطمية.

- إنني أزهّد الناس يا سيدي في هذه المناصب، وإنني أكره أن يكون رزقي محدودًا معينًا فأفقد فضيلة التوكل على الله توكلاً مطلقًا خاليًا من الشوائب، ولا أحب من رزق ربي إلا ما كان مجهولًا مغيبًا.

- إن قاضي القضاة، وداعي الدعاة، وجميع زهاد الفاطمية لهم رواتب محدودة معينة، فاقبل هذا الراتب يا مولانا، وتصدق به إن شئت.

- هذا حل معقول.

- لقد أخبرت مؤتمن الخلافة بك، واقترحت أن يسند إليك هذا المنصب، فقبل مسرورًا، ورأى أن يكون الراتب ثلاثين دينارًا.

- أرجو أن نوفق جميعًا إلى الخير.

ثم نهض زيد الدين وقال: سبحان الله وبحمده!! اللهم بجاه فاطمة وابنيها الشهيدين، وخلفائك الطاهرين من عترتها أن تملأ هذا المكان أمنًا وإيمانًا ونورًا وبركةً.

ثم ودعه وانصرف، وفي الصباح ذهب إلى القصر، وعرفه ابن دخان بكبار الأساتذة والقواد، وبدأ عمله الجديد.

وكانت خزائن الكتب تشغل بهواً واسعاً وحجراً كثيرة، قد قسمت رفوفها أقساماً: لكل علم قسم خاص به، وكانت تشتمل على أكثر من مائتي ألف كتاب في الآداب والعلوم، كتبها بالذهب كبار الخطاطين كابن مقلة، وابن البواب، وبها أكثر من ألف نسخة من تاريخ الطبري، منها نسخة بخط الطبري نفسه، وأكثر من مائة نسخة من الجمهرة لابن دريد، وأكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل ابن أحمد، إحداهن بخط الخليل، وجملة القول وقصاراه: أنها كانت أعجوبة الدنيا، بزّت جميع دور الكتب في بغداد والأندلس. بقي الحراني في هذا المنصب الجديد وادعاً هانئاً، لا يكدر عليه عيشه إلا فجيعة في ابنه، وقصر يده عن أن تنال عمارة أو أحدًا من أهله بانتقام.

الفصل السادس

غادر عمارة وأهله مكة، ومعه كتابا الأمير: قاسم ابن هشام، وسارت به النجائب تشق أديم الصحراء، كأنها ساريات الأحلام في الليل البهيم، وقد بدت الكثبان وسني يوقظها وخذ الإبل، وأراجيز الحداة، فتصحو قليلاً ثم تُغفي.

هدوء وسكون، وصمت، وجلال ورهبة.

هذه هي الصحراء... من صخورها خلقت أخلاق العرب، ومن أطرافها تلقوا وحي شعرهم، ومن مداها الفسيح المترامي استمدوا خيالهم، وفي جذبها نبت الإباء العربي، والاعتزاز بالنفس، والكرم، والحمية، والصبر على المكاره.

نظر عمارة أمامه _ وهو فوق قتب بعيده _ فرأى بحرًا مائجًا من الكثبان والرمل، ورأى فضاء لا تبلغ العين غايته، ورأى نجوم ليل الصحراء وقد زدن لألاء والتماعًا وقربًا، كأنها اللؤلؤ اللامع علق بخيوط القدرة بين السماء والأرض؛ فتنهد وقال: آه أيتها الصحراء! أين أبطالك الذين ملأوا الدنيا عمرانًا وعلمًا، وشرائع وفنونًا؟! أين

أبطالك الذين كانوا ملائكة العروش، وشياطين الهيجاء!
علميني يا صحراء تلك الدروس التي تلقاها خالد بن الوليد،
وسعد ابن أبي وقاص، وأبو عبيدة ابن الجراح! بوحى أيتها الصحراء
لي بسرك الدفين... فإني عليه جد أمين! إني يا صحراء أود أن أكون
لك ابناً، فأوصيني ما تشائين... لي آمال أوسع من مداك، ومطالب
صعبة المرتقى كجبالك، فهل أنا بالغ آمالي، فائز بمطالبي؟ قولي يا
صحراء ماذا يجب أن أفعل؟ واهمسي في أذني كما همست في آذان
أبنائك الأولين...

وهكذا ظل عمارة يحدث نفسه، وظلت الإبل تطوي الفلاة،
حتى بلغت جدّة، فنزل الراكب، وتقدم من عمارة نائب الرئيس
قاسم_ وقد سبق إليه خبر قدومه_ فأنزله خير منزل، وغمره بصنوف
من الحفاوة والإكرام، ثم أعدّ له سفينة تنقله إلى مصر
فأبحر في بحر القلزم وكان الجو صحواً؟ والريح رخاء، فوصل
بعد أيام إلى مدينة القلزم(السويس)، ومن ثم استأجر إبلاً تحمله،
وتحمل أهله ومتاعه إلى القاهرة، وكانت القاهرة في هذا العهد تمتد
من ناحية الشمال إلى باب النصر وباب الفتوح، ومن ناحية الجنوب
إلى باب زويلة الجديد، ومن الشرق إلى البرقية، والباب المحروق،
ومن الغرب إلى خليج أمير المؤمنين، وبهذه الجهة باب السعادة،
وباب الفرج، وباب القنطرة.

وكانت مزدحمة السكان، واسعة العمران، بها كثير من الجوامع،
والرُّبَط، والدور العظيمة، والمسكن الجليلة، والأسواق المملوءة
بأنواع التجارات، والخانات، والفنادق المكتظة بالمسافرين.

وصل عمارة إلى القاهرة في ظهر يوم من ربيع الأول، سنة
خمسین وخمسائة، وهو شاب في الثلاثين، وسيم الطلعة، مشرق
الديباجة، رائع القسمات، معتدل الطول، شديد الأسر، قوي العضل،
فسار بأهله من الريدانية إلى باب الفتوح، ونزل في دار تشرف على
جامع الحاكم بحارة الريحانية، حتى إذا استراح من لغوب السفر
أيامًا بعث ب رقعته إلى الوزير ابن رزيك، يطلب فيها شرف المثول
أمامه، وأمام الخليفة الفائز، وكتب في آخرها:

دعوا كل برق شمتُّم غير بارق

يلوك على الفسطاط صادق بشره

وزوروا المقام الصالحي فكل من

على الأرض يُنسى ذكره عند ذكره

ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى

فتجنوا على مجد المقام وفخره

ولكن سلوا منه العلا تظفروا بها

فكل امرئ يُرجى على قدر قدره

فأرسل إليه ابن رزيك رسولا يخبره بأن المقابلة يوم الاثنين
بالقصر الكبير، فأعمل عمارة خياله، ودعا إليه شيطان شعره، وكتب
قصيدة طويلة أعدها للإنشاد أمام الخليفة.

فلما جاء الموعد استأجر بغلة أوصلته إلى القصر الكبير،
فرأى من عظمته، وضخامة بنائه، وإبداع نقوشه، ما أدهشه وأطار
لبه، وقصور الفاطميين وما كان لها من سموق بنيان وبراعة نقوش،
وجمال أثاث، وحسن تنسيق_ يكل القلم دون وصفها، ويعجز
البيان أمام سناها وسنائها_ فليس في طوق الخيال أن يلهم بما كانت
توحي به من عظمة ملك، وقوة سلطان، وضخامة ثروة، وسطوة دولة،
وإسراف في الترف، وإغراق في النعيم.

لا يستطيع القلم أن ينقش ولا البيان أن يرسم، ولا الخيال أن
يصور، فخير لنا أن نلقي القلم، ونسكت البيان، ونحبس الخيال،
ونترك للقارئ أن يتخيل ما يشاء ويرسم من صور العز والملك
والسلطان ما يريد.

وصل عمارة إلى القصر الكبير، فاستقبله الأستاذون المحنكون،
وعلى رأسهم مؤتمن الخلافة، يتسلمه أستاذ ليوصله إلى آخر حتى
وصل إلى قاعة الذهب، وكأنها بنيت من الذهب حقًا؛ لكثرة النقوش
الذهبية التي تملأ حيطانها وسقفها، وهي قاعة العرش التي يستقبل
فيها الخليفة رجال دولته في أيام المحافل والأعياد والمواسم.

دخل عمارة خاشعًا مطرّفًا، وكلما حاول أن يرفع من طرفه
قليلاً مهابة وجلالة، وملكا يبهر العيون، ويهول النفوس. رأى
الخليفة الفائز على العرش في أثواب كلها ذهب وديباج، رآه صغيرًا
لا يتجاوز السادسة، نحيل الجسم، مصفر الوجه، له عينان واسعتان
كعيني النمر كلها بريق والتماع، ورأى الأستاذين المحنكين حوله
في رهبة وخضوع، كأنهم يحرسون سرًا سماويًا مقدسًا، ورأى وزيره

الصالح ابن رزيك واقفاً إلى يمينه في خشية وقنوت، كأنه في معبد صلاة وتبتل، وإلى يساره داعي الدعاة، وقاضي القضاة والأمراء، وكبار الرؤساء والقواد، وفيهم الأوحى بن تميم، وشاور بن مجير، وضرغام اللخمي، ومجد الإسلام بن صالح، ونقباء المعلمين.

أما كبار الكتاب، ورجال القصر فجلسوا خلف هؤلاء، وكان بينهم: ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، والجلس بن حباب، والمهذب أبو محمد الأسواني، وزين الدين بن نجا، وإبراهيم بن دخان، رئيس ديوان الرواتب.

وكان الصمت يملأ النفوس هيبة، فتقدم عمارة من الخليفة، فقبل يديه وقدميه، ثم تقهقر قليلاً، وأنشد بصوت ندي، ونبرات ساحرة أخاذه:

الحمد للعيس بعد العز والههم

حمداً يقوم بما أولين من نعم

قرين قرب مزار العز من نظري

حتى رأيت إمام العصر من أمم

فهل درى البيت أني بعد فرقته

ما سرت من حرم إلا إلى حرم

حيث الخلافة مضروب سرادقها

بين النقيضين: من عفو ومن نقم

ولالإمامة أنوار... مقدسة
تجلو البغيضين: من ظلم ومن ظلم
وللعلا ألسن تُثنى محامدها
على الحميدين: من فعل ومن شيم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها
وزيره الصالح الفراج للغم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله
إلا يد الصانعين: السيف والقلم
ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها
عقود مدح فلا أرضى لكم كلمي

وكان الصالح شديد التأثر بالشعر الرائع، يؤديه صوت رائع،
فاهتز طرباً، وأخذ يطلب الإعادة بين بيت وبيت، وملك حسن الشعر
على الأستاذين، ورجال الدولة وأدبائها شعورهم، فلم يستطيعوا إلا
أن يجهروا بالاستحسان والإطراء.

وكان بقاعة الذهب باب عليه ستار من الحرير المطرز بالذهب،
كان ينفرج أحياناً فتطل منه عينان ساحرتان، في وجه يمتزج فيه
ماء النعيم بماء الفتنة والجمال، وما كاد عمارة يتم إنشاده، حتى

أفيضت عليه الخلع المذهبة من أثواب الخلافة، ووصله الملك الصالح بخمسمائة دينار، وجاء بعض الأستاذين إليه يحمل صرة بها خمسمائة دينار، وهو يقول: إن سيدتي سيدة القصور، قد أعجبت بك وبشعرك أعظم الإعجاب، وهي تبعث إليك بصلتها هذه، وقد أمرت أن تخلى لك (منظرة الغزالة) المشرفة على خليج أمير المؤمنين، ثم ابتسم وقال: على شرط أن تعيد أمامها إنشاد قصيدتك الرائعة؛ لأنها لم تستمتع خلف الستار بكل ما فيها من جمال.

ثم أقبل على المهذب أبو محمد الأسواني_ وكان زعيم الشعراء بمصر، وسيد كتابها_ فشد على يديه مهنئاً، وقال: أيها الشاعر اليمني، هل أطمع في أن أكون لك صديقاً، فإنني عندما رأيتك أحسست بحبي لك، وحينما سمعتك أحسست بإكباري لأدبك، لقد ألح عليّ مولاي الملك الصالح ألا تنقطع عنه، وألا تحرمه زيارتك، وأن تنثر عليه من حين إلى حين فرائد شعرك، فإنه كريم أريحي يهتر للمديح، ويجزل الثواب عليه، وقد أمر أن يخلع عليك لقب: شاعر القصر، وأن تمنح راتباً كل شهر يقرب من رواتب رجال الدولة.

فما استطاع عمارة إلا أن يشد على يدي صديقه الجديد، بحماس وإخلاص صادق، ورجاه أن يبلغ ثنائه، وجميل شكره للملك الصالح على جزيل ما وهب، وكريم ما أعطى.

وخرج ابن دخان صاحب ديوان الرواتب، وزين الدين بن نجا، فمال ابن دخان على صاحبه، وقال: ما هذه التعويذة التي شهدناها اليوم يا سيدي؟! شاعر مستجد متكسب بشعره... يلقي أبياتاً سمجة غثة، فينال من الجوائز والعطايا ما لم يستطع المؤرخون ادّعاء مثله في عهد الرشيد؟! ماذا قال يا صاحبي بالله عليك...؟!!

ماذا قال...؟! (بين النقيضين: من عفو ومن نقم)؟! (تحلو البغيضين من ظلم ومن ظلم)؟! ما أسخف!! وأنا أقول له: يا ابن الشقيين: من عاد ومن إرم!! وسارق الهاربين: النوق والغنم. وكان زين الدين مريد الوجه حزين النفس، بعد أن رأى عدوه الذي تمنى له الغوائل، يصل إلى هذه المنزلة، ويحظى بذلك الإقبال، فتكلف الابتسام، وقال: ما كنت أظنك شاعرًا أبا الفضائل، يجب أن تمدح الرجل لا أن تدمه؛ لأنه أول من ألهمك الشعر.

- أحمده؟! أنا لا أطيق يا أخي هؤلاء الأفاقين الذين يردون مصر من كل صوب لامتصاص دمائها، واشتفاف لبنها، كأنها بقرة حلوب خلفها لهم أبوهم آدم، هذا يأتي بيت من الشعر فنسميه سيد الشعراء، وهذا يجئ بحفنة من علم، فنصيح: إنه أعلم العلماء، وهذا متبتل ناسك قطع الفيافي والقفار إلى مصر، ليزور مشهد الحسين رضي الله عنه فنصب عليه العطايا والنعم حتى ننسيه نسكه وتبتله... ما هذا يا ابن نجا؟! أليس في مصر شاعر يفوق هذا اليمني المحتال، أليس في مصر عالم يفوق هؤلاء الذين يسقطون علينا كل يوم من كل نواحي الأرض!؟

وغدًا يا سيدي غداً، يجيء هذا الصعلوك ليطالب براتبه الذي رتبته له الملك الصالح في كل شهر... وما راتبه؟ مائة وخمسون دينارًا، أنت تكدح وتنصب، وتعمل نهارًا وليلاً في خزائن الكتب، ولم يزد راتبك عن ثلاثين دينارًا، أنا لا أدري ماذا سيكون من شأن الخزانة إذا استمررتنا في هذا الإسراف!؟

فابتلع الحراني ريقه من هول ما دهمه من قدوم عمارة والحفاوة به، وقال: هون عليك أبا الفضائل؛ إن مصر كثيرة الخيرات، واسعة الثروة، وإن من المحتوم عليها أن تكرم أبناء العربية، وأن تحسن لقاء الوافدين عليها، ثم إني لا أعرف سبباً لبغضك هذا الرجل، وهو وسيم الطلعة، خفيف الروح، وإن كان وجهه يدل على الخبث والدهاء واللؤم؟!!

- لا أدري لم أبغضه يا ابن نجا؟! لقد سمج في عيني منذ رأيتَه، وأحسست ببغض له يملأ قلبي، وهذا وحي يا أخي، وإذا كان (لهوى النفس سريرة لا تعلم) فإن لبغضها سريرة لا تعلم كذلك... لا أدري والله! ولكنني أشعر أنه يجب أن يزول هذا الرجل من طريقي، حتى لكأن غرائز النمر تتحرك في نفسي للوثوب عليه والتهامه.

- هذا ما أحسُّ بقليل منه، ولكن ما لنا وللرجل! دعه إلى الأقدار... دعه إلى الأقدار.

الفصل السابع

بعد عشرة أيام من إقامة عمارة بالقاهرة، أرسلت سيدة القصور عبدها (راجحًا) ليدعوه إليها، فركب حصانًا أشهب أهده له الوزير الطلائع، وصحبه راجح على جواد عربي كريم، فسارا من حارة برجوان، وكانت طويلة كثيرة التعاريج، والمنحنيات، حتى وصلا إلى طريق باب الفتوح، وبدا لهما الجامع الأقرم إلى اليسار، فانحدرا جنوبًا إلى ما بين القصرين، وتقدم راجح بجواده إلى باب الزمرد: وهو أحد أبواب القصر الكبير، يمتاز بحسن بنائه، وجمال زخرفه، وكثرة ما به من أعمدة الرخام الضخمة، دهش عمارة لفخامة الأثاث وجماله: فالأبسطة الفارسية تغرق فيها الأرجل، والستائر المذهبة تذهب العين من جمالها، والأرائك والكراسي كلها من خشب الصندل، والعود المضيب بالذهب، المرصع بالجواهر الكريمة، وقد فرشت بأنواع الحرير الثمينة، والمخمل والخسرواني، والديباج الملكي.

واتجه عمارة إلي يمينه، فرأى حائطًا مغطى بنسيج من الحرير الأزرق التستري، وقد طرز بالذهب، وعليه صورة أقاليم الأرض، وجبالها وبحارها، ومدنها وأنهارها ومسالكها، وفيه صورة مكة والمدينة ظاهرتين للناظر، وقد كتب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير، فاقرب عمارة من هذا المصور العظيم، فرأى أنه كتب في حافته: (مما أمر بعمله المعز لدين الله، شوقاً إلى حرم الله، وتنويهاً بمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار). أما الستائر فكانت من الحرير الأخضر، وعلى كل ستارة صورة لملك أو خليفة أو قائد لكل بلد من بلاد المسلمين، وقد كتب تحت كل صورة اسمه، ومدة حياته، ومجمل تاريخه.

بهت عمارة لهذا الملك العظيم وهذا العز السامي، وذلك الترف الذي بلغ الغاية وجاوز حدود الوهم والخيال، فلم يشعر بالجواري الزاهبات هنا وهناك، من روميات وصقلييات، وتركيات، وجركسيات، وقد زادتهن الملابس جمالاً، أو زدن الملابس جمالاً. أصيب عمارة بالذهول، أو بما يشبه الجنون، وما شعر إلا براجح يرفع ستارة من الديباج المطرز باللؤلؤ، ويقول له: تقدم.

فتقدم عمارة ورفع بصره قائلاً، فرأى سيدة القصور في صدر البهو على كرسي مرتفع يشبه العروش، وقد كان ما لمحّه من جمال فوق ما يصوره الشعراء، ويجسمه المثالون، خلقها الله لتكون فتنة للعيون، وجوى للقلوب، وحيرة للواصفين، هي جميلة كلها، فإذا أخذتها قطعة قطعة كانت أروع وأجمل.

تقدم عمارة فقْبَل يدها، ثم قبل طراز ثوبها، ووقف مطرقاً خاشعاً؛ فأعجبت سيدة القصور بجميل طلعتة، واعتدال قامته، وبما يبدو في عينيه من صفات النبل والرجولة؛ فمال إليه قلبها وخفق فؤادها، وشعرت بقوة تجذبها إليه، قد تكون ما يسميه الناس حباً، ولما رأَت حيرته وارتبأكه أرادت أن تخفف عنه، وتبسط ما انقبض من نفسه فقالت: كيف أنت يا يمَنِيّ؟ لعلك رأيت في (قاهرتنا) ما يسليك عن (صنعاء وزيد) فقال عمارة: يا مولاتي، إن الذي يعيش في وارف ظلكم، وعزيز كنفكم، ينسى وطنه وأهله ولو كان في صحراء قاحلة، فكيف والقاهرة بكم سيدة الحواضر، ومدينة المدائن؟! إن مصر يا مولاتي لم تر منذ أن خفقت فوقها راية الإسلام دولة كهذه الدولة: قوة ومنعة، وعدلاً، وجوداً، وإحساناً، وإن الناس اليوم إذا أرادوا توكيد أيمانهم، لا يقولون إلا: (وحق سيدة القصور)، فمن غير الفاطميين يا مولاتي نشر في مصر الأمن، واليسر، والسرور، والثروة؟! حتى لو كان الفقر رجلاً، وسألني عن صديق يصاحبه لقلت له: لن تجد يا صاحبي لك هنا رفيقاً، ولكن عليك باليمن؛ فإنك تجد هناك أصدقاء بالألوف.

فابتسمت سيدة القصور، وقالت: هذا دأبكم أيها الشعراء تلبسون الحق بالباطل!

- إن وصف مصر في أيامكم يا مولاتي يعجز الشعراء، وكل ما يقال فيها دون ما يجب أن يقال.
- أنت لم تر الفاطمية في ذروة مجدها، أظنها الآن تسير بقوة الماضي.

- يا مولاتي: الفاطمية بك، وبمولاي الخليفة دائماً في ذروة مجدها.

- إن آمالي يا عمارة أبعد ما تناله يدي، ولو استطعت لأعدت أيام (المعز والحاكم)، ولكنني أجد الطريق وعرة، والمرمى بعيداً، وأنى تستطيع امرأة ضعيفة مثلي أن تعمل

شيئاً، ودرعها الخمار، وسيفها البكاء، وعليها جرّ الذبول لا قيادة الجيوش؟! إنني في الحق سررت بمقدمك؛ لأن القصر كان في حاجة إلى شاعر يذيع مآثره، وينشر مفاخره، وينقل صوته من الخاصة إلى العامة، فيزيدهم بالخلافة تمسكاً، ولها نصراً وتأيداً.

- إن شعري يا مولاتي سيكون جيشاً بجانب جيوشكم، وسأكون لكم كما كان حسان للمسلمين الأولين.

- حياك الله أبا محمد... هذا ما ترجوه منك الخلافة، إن الخليفة لا يزال صغير السن، وأرى الأعداء يرمقون مصر من كل جانب؛ فالإفرنج نزلوا الشام، وملكوا كثيراً من بلادها، وقد أصبح خطبهم شديداً، وهؤلاء الغز الذين ستروا مطامعهم في اغتصاب الأمم، بدعوى الغزو والجهاد في سبيل الله، والذين يقودهم نور الدين بن زنكي يتحرقون شوقاً إلى مصر، وإلى الارتواء من نيل مصر، وهذه الدسائس التي تحاك هنا حولي في سرايب مظلمة في جنح الليل المظلم، تنذر بالخراب والدمار، فماذا تفعل امرأة مثلي يا شيخ في مثل هذه الزواجع والزعازع؟! كان صوت الأميرة حزيناً متهدجاً، وقد فرت دمعتان من عينيها أسرعتا إلى مسحهما بمنديل

في يدها، ثم كأنها أنفت من هذا الضعف النسوي، فضربت
بقدمها الأرض، وقالت: أريد أن أنقي الجو حتى أستطيع أن
أتنفس... أريد أن أنام ملء عيني في قصور المعز من غير
أن أشعر أن الكيد والخديعة والأعداء من الخارج تنقبها من
قواعدهما...

- إن قوَّادك ووزرائك يا مولاتي طوع أمرك، والملك الصالح
طلائع الذي قدم بجيشه من (مُنيه ابن خصيب) لنصرة
الخلافة، لا يزال كما كان للخلافة أمينًا مخلصًا.

فظهرت على وجه الأميرة كدرة خاطفة سريعة من الحقد
والغضب لم يدركها عمارة، وابتسمت وقالت: صدقت يا عمارة، ما
أعلمك بأخلاق الرجال! إن ابن رزيك قوام هذه الدولة، وهو سيفها
القاطع، ورأيها النافذ، واني أسد أذني عما يقول كثير من حساده،
يقولون: إن أرمني اتخذ الإسلام ذريعة للعنصرية لا للأخرة، واتخذ
المذهب الفاطمي ذريعة للملك... قاتلهم الله فهم كذابون أفأكون!
لن تجد مصر رجلًا كابن رزيك، ولو كان للإخلاص والوفاء صورة
لكانت لابن رزيك... أما (شاور) و(ضرغام) فلا أعرف عنهما إلا
أنهما كبير الأمال، ولعل هذه الآمال تتجه إلى إعزاز كلمة الخلافة!
ثم ضحكت وقالت: أتعبتك من الحديث في شؤون الدولة،
وكل حديث فيها ممل ثقيل، ما أجمل قصيدتك التي أنشدتها يوم
استقبالك! وأجمل ما فيها:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها

عقود مدح فما أرضى لكم كلمي

المعني قديم مطروق يا أبا محمد، ولكنك أحسنت صياغته،
فإيه بالله عليك يا محمد... ادنُ مني قليلاً... ما لي أراك مستوحشاً؟!
انقض عنك هذه الرهبة، وحدثني كما تحدث الناس، فقد سمعت
أنك حلو الحديث، عذب المحاضرة والمفاكهة، اسمع يا عمارة:
أتريد أن نكون أصدقاء؟

- تلك المنزلة لو رأيتها في المنام يا مولاتي ما صدقتها. وأين
الشرى من يد المتناول.

- لا، صدقتها ونحن في يقظة لا في منام، وأمامك سيدة القصور
بنت الخلائف، وملكة مصر.

فأكبَّ عمارة على يدها، فتركتهما له، فاستمر طويلاً يغمرها
تقبيلًا ولثماً، وقد أحس كهرباهما تسري إلى جسمه، فتملؤه نشوة
وانتعاشاً، ثم قال: أنا عبد مولاتي وخادمها، وإن قلبي ولساني
وسيفي_ إن شاءت_ ملك يمينها.

- لا... أنت صديقي، ولكننا قبل أن نبني هذه الصداقة، يجب
أن نجعل أساسها ميثاقاً مقدساً، وعهداً أكيداً.

- ألف عهد وألف ميثاق أبدلها تحت قدميك، وأنثرها أمام
هذا الجمال الرائع... ولولا رهبة الملك لقلت هذا الجمال
الفاتن... فابتسمت الأميرة وقالت: لم تطق أن تصبر لحظة
عن شاعريتك فحننت إلى الغزل، كما يحن الطائر إلى التغريد
عند سفور الصباح!

- يا مولاتي أنا شاعر، والشاعر ليس إلا مرجلاً يغلي بضروب
الإحساس والوجدان، فإذا لم يجد متنفساً انفجر وتحطم،

إننا معشر الشعراء نرى الصور بعيون من الفن لا يبصر بها
سوانا... نرى الجمال فنذهب بخيالنا في روضاته، فيتكشف
لنا عن بدائع لا تراها العيون، نحن نعيش في دنيا غير دنيا
الناس، ونفهم من أسرار الحسن غير ما يفهم الناس، إن
الحسن أحياناً قد يتحدى الشعر، وقد يعجز الخيال، وقد
يبهر العين كما بهرني، ولكننا لا نلقي أمامه السلاح أول
مرة، ولا نستسلم خاضعين، بل نأخذ في إطلاق الشعر حوله
رصيناً أو غير رصين، مبيئاً أو غير مبيئ، ثم نصيح كما يصيح
المحموم، حتى نخفف من ثورة قلوبنا، وإلا قتلنا الحب،
ورحنا شهداء النظرات الفاتكة، والبسمات الفاتنة.

- قصيدة منشورة يا أبا محمد! إن لبيانك سحرًا عجيبًا! ثم
تهانفت وقالت: نسينا العهد والميثاق.

- صوغني العهد يا سيدتي كما تشائين، ولا تبقي شيئاً من
الأيمان المحرجة، فإنني أكرر بعدك كل ما تقولين.

- إن عهود الفاطميين ليست هينة يا عمارة، فهي شديدة قاسية،
ووراء كل كلمة منها إسماعيلي فدائي، يغمد سكينه في قلب
كل من نكث بها.

- إن دمي لك يا مولاتي، وهل أقول قلبي؟

- قل ما تشاء.

- دمي، وقلبي، وحياتي لك يا مولاتي، فهاتي العهد، وتشددي
وووثقي كيف شئت كما يوثق كتاب العقود.

- ولكنني قبل العهد أريد أن أتحدث معك قليلاً: أتعلم أن أهل مصر تحولوا جميعاً إلى المذهب الفاطمي، وأصبحوا من أشد الناس غيره على نشره، والمحافظة على تعاليمه ومراسمه... إنهم قوم يحبون البهجة ومظاهر السرور، وحفلات الأُنس والطرب، وضجيج المواسم، وقد أكثرنا من ذلك لهم... أتعلم أن مواسم الفاطميين تزيد في السنة على ثلاثين موسمًا؟! هذا إلى ما يعمل في رمضان والعيدين من الحفلات الشائقة، وضروب البذخ والإسراف، أتعلم أننا جعلنا سيف المعز وذهبه شعارًا لدولتنا؟! أسمعت بقصة جدي المعز في أول اجتماع عام له بالقاهرة، حينما طالبه ابن طباطبا نقيب الطالبين بما يثبت نسبه وحسبه؟ فنثر جدي الذهب على الناس، وقال: هذا نسبي! ثم جرد سيفه من غمده وقال: وهذا حسبي! ومن ذلك الحين أصبحت دولتنا تقوم على هاتين الكلمتين: الذهب لمن أطاع وأصلح، والسيف لمن عصى وأفسد.

- هذا يا مولاتي هو العز الباذخ، والملك الشامخ، فبأبناء فاطمة تتيه مصر، ويسعد أهلها.

فمالت إليه الأميرة باسمه، وقالت بصوت متهدج عذب النبرات، بعد هذا، وبعدهما سمعت منك أبا محمد عن سماحة الفاطمية وجودها، وعدالة حكمها أحب أن تكون فاطميًا.

- أنا فاطمي يا مولاتي... أحب فاطمة الزهراء، وأحب عليًا -
كرم الله وجهه - وأحب أولادهما، وأعتقد أن حبهم قربي إلى
الله وشفاعة.

- لا يا عمارة... لا تغالطني بحقك... أنت تعلم ما أريده،
ولكنك تراوغ روغان الثعلب، ولولا ميل أحسه نحوك ما
طاولتك هذه المطاولة، ثم ظهرت في وجهها شراسة النمرة
فقلت: إن لمثلك عندنا إحدى خلتين: إما تعتق مذهبنا،
وإما أن تسيل نفسه على سيوفنا، أتريدنا الآن يا يمني على أن
نعود إلى الانحلال، والتجاوز المميت؟! لا... لا... لا بد من
إحداهما، إما أن تكون فاطميًا، وإما أن لا توجد.

فارتعدت فرائص عمارة، وقال في تلعم: فهت من مولاتي
أنها لا تريد من الحياة إلا إعلاء المذهب الفاطمي، وثبتت أركانه،
وفهمت أنها لهذه الغاية نفسها تدعوني إلى اعتناق المذهب، فما
رأيك يا مولاتي أننا متفقان في الغاية؟! متفقان تمام الاتفاق!
سأكون خير عدة في نشر المذهب الفاطمي، سأكون له لسانًا ناطقًا،
وقلبًا خافقًا، سيكون شعري أغنيته التي يطرب لها كل سمع، ويطفتح
لها كل قلب، سيحسدني داعي دعاة المذهب على حسن ما أبلت
في انهاض الفاطمية، وإعلاء لوائها، سيرى النقباء الاثنا عشر أنهم لم
يعملوا شيئًا بجانبني... سيردد الأطفال في الحارات أناشيد الفاطمية،
وستغرد النساء في بيوتهن بمجد الفاطمية، وسيرى الأدباء والعلماء
في شعري صورًا ساحرة لجمال الفاطمية وسماحتها... سأعمل كل
هذا لأنني أحب مولاتي، ولأنني رأيت من كريم وفادتكم، وجزيل

عطائكم، وعميم إحسانكم إلى الناس ما بهرني، وملاً قلبي حباً لكم، ولكل ما يتصل بكم، أما عقيدتي أنا... التي تنطوي عليها جوانحي، فدعيتها لي يا سيدتي، دعيتها بالله فإنها بقية ما يصلني بأهلي الذين فقدتهم، دعيتها فإنها إرث الماضي البعيد، دعيتها فإنها جزء من نفسي، ثم وثب قائماً وفي وجهه شهامة العربي الكريم، وقال: لن أغير عقيدتي، ولو طلبت ذلك أجمل امرأة أظلتها السماء، وهي سيدة القصور.

- اهدأ أبا محمد.

- يا مولاتي، إنني أعتقد أنني لو غيرت عقيدتي أول ما تطلبين مني لهزئت بي وسخرت مني، وقلت في نفسك: تعساً له من رجل سقيم الإرادة، هزيل العزيمة! ثم هبيني كنت رجلاً إمعاً لا خلق له، ولا عزم، ولا دين، أتظنين أن ذلك يقربك من غايتك؟! لا. سيضحك الناس مني في أكمامهم إذا ناديت بفضل الفاطمية، ويقولون: يا له من شقي أفاق ماجور! اشترت منه الخلافة عقيدته بدراهم معدودة، فجاء يدعوننا إلى الحرص على مذهبها، وربما همس أحدهم في أذني بنخب وشماتة قائلاً: إن الرجل يفرط في مذهبه أولى به أن يتوارى عن الناس، وألا يحثهم على التمسك بمذهبهم، ثم إن الوفاء أظهر خلائقي، وأقوى شيمي، فإذا لم أف لعقيدتي فأجدر بي ألا أفي لمخلوق... سأعيش للوفاء، وسأموت للوفاء، ولن يقول إنسان: إن ابن علي خان عهداً، أو أخفر ذمة.

فانبسطت أسارير سيدة القصور وقالت: أحسنت أبا محمد، إن هذا البيان وهذا الفكر الواسع لا تستغنى عنهما الفاطمية.

- اطمئني يا مولاتي، فسأكون لك عونًا، ولمذهبك سيفًا ودرعًا، وسأكون فاطميًا بلساني، سنيًا بقلبي، فماذا تريد مني فوق هذا؟

- اكتفيت أبا محمد، فإن لروعة منطقتك، إلى وسامة طلعتك، إلى كريم خلقك، وكمال رجولتك سحرًا وفتنة: أيرضيك هذا الإطراء أبا محمد من امرأة كانت تظن أن الأرض أقفرت من الرجال حتى رأتك؟

فوثب عمارة على يديها يقبلهما، ويرتفع بفيه قليلاً قليلاً حتى يصل إلى معصميهما، ثم قال: يرضيني يا مولاتي، أنا لا أدري: أنا فوق الأرض، أم سابح فوق السحاب؟!

- لا... لا تعد إلى شاعريتك، أنت معي هنا في قصر الزمرد... هلم إلى العهد، فتنهد عمارة وقال: هاتي يا سيدتي، هاتي... فأخرجت سيدة القصور ورقة من منديلها، وأخذت تتلو وهو يعيد: (أقسم وأحلف بالله المنتقم القاهر، وبرسوله الكريم، وبوصيه ووليه، وببنته الزهراء سيدة نساء أهل الجنة، وبكريم نسلها وشريف عترتها على أن أكون للفاطمية عونًا ولها ناصرًا، ولدولتها مؤيدًا، وعلى أن أعاضد أوليائها، وأحارب أعداءها، وأتخذ كل وسيلة وكل أداة، وكل ذريعة لرفع شأنها، وإماطة الضر عنها، وعلى أن يكون دمي، وشرفي،

ومالي هدراً مباحاً إن خنت لها عهداً، أو نكثت بوعد، أو
توانيت عن وفاء).

وبعد حلف اليمين كان جبين عمارة يتصبب عرقاً، فرفع
عينيه وقال: بقيت مسألة يا سيدتي، وهي أني شاعر، وقد أمدح قومًا
تضميرين لهم سوءاً، فهل هذا ضائري عندك؟

- لا يا عمارة، أيد بمدحك من تشاء منا، واخذع بمدحك من
تشاء غيرنا، ولا تخش شراً فأنت موضع ثقتي... هلم إلى
الطعام والشراب.

ثم قامت سيدة القصور إلى بهو آخر، أعدت فيه مائدة ملكية
يحيير وصفها الألباب، وبعد الطعام قدمته الأميرة إلى بهو الأغاني،
وقد كانت الجواري أعددن آلات الطرب، فجلست الأميرة، وجلس
عمارة بعيداً، وجلست إلى جانب الأميرة جاريتها (باسمة)، وهي
جارية جركسية بارعة الحسن، رائعة الطلعة، تفور فيها الأنوثة،
وتصطخب في نفسها ثورات الشباب، لمحت عمارة، فرأت فيه
محيئاً عربياً، ووجهاً صبيحاً، وقامة فارعة، فاضطرب له فؤاده،
وأخذت تخالسه النظر، وتتحين الفرصة لمحادثته واجتذابه، واستمر
الطرب إلى الهزيع الأخير من الليل، حينئذ وقفت الأميرة وسلمت
على عمارة، وهمست في أذنه: سأرسل إليك راجحاً في كل ثلاثاء.
ثم أمرت (باسمة) أن تسير معه إلى الباب الكبير، وأن تأمر راجحاً
أن يصحبه إلى داره.

فسارت (باسمة) معه من سلم إلى سلم، ومن بهو إلى بهو، وقد جاذبته الحديث طويلاً في هذه الأثناء، ورمت إليه بكثير من شباكها، وألقت إلى قلبه بالمجرب النافع من سحرها، ولكن عمارة كان عنها وعن فنونها في شغل شاغل، فلم يقابلها إلا بالصد والعبوس فحزنت (باسمة) ولكنها لم تياس، وقالت في نفسها: ويل لهذا المهر الحرون مني! سيأتي إليّ خاضعاً، وسيلقي عنانه بين يدي ذلولاً، ثم قابل راجحاً فودعته (باسمة) وانصرفت، فركب عمارة وراجح جواديهما، وإذ هما يخرجان إلى الطريق سمع عمارة مؤذن الصبح من مئذنة الجامع الأحمر، وهو يردد بصوت رنان: حي على خير العمل! حي على خير العمل!

أقام عمارة بالقاهرة طويلاً في عز وثروة وهدوء بال، وكان يستدعيه راجح في كل أسبوع للقاء الأميرة، فزاد هيامه بها، وبجودها وذكائها، وحرصها على حياة الدولة، وكانت (باسمة) في كل زيارة تغالزه على أن تصيبه، فيصرفها عنه في تعفف واستنكار.

وبينما كانت تودعه إلى باب القصر في بعض زوراته، دخلت به إلى إحدى الحجرات، وسألته في رشاقة تستنزل العصم، وفي دلال يلين الصخور الصم أن يكتب لها بعض أبيات رقيقة قالها في الغزل، وكانت تحادثه وهي ترفع خصلة متهدلة من شعرها الذهبي اللماح، وتصوب إليه عينيها في ضعف وفتور، يوقظ الفتنة النائمة، ويشير العاطفة الخاملة، والجمال يستعين دائماً بقوته إذا ملك، وبضعفه إذا حاول أن يملك، والجمال الهادئ المستكين أقوى أنواع الجمال تحكماً في قلوب الرجال، وهو أحبولة المرأة، وأداة وثوبها، ودرع

دفاعها، عرفت المرأة بفطرتها الصادقة، وغريزتها النافذة، ما في الرجل من غرور وكبرياء، واعتزاز بحوله وطوله؛ فهي دائماً تأتيه من هذه الناحية، فتتوسل بضعفها إلى قوته، وبأنوثتها إلى رجولته، وبلينها إلى خشونته، وبأنها تريد أن تتخذ من قلبه حصناً تلجأ إليه من عواصف الأيام، ومن عطفه حمى تلوذ به من أعاصير الحياة، ثم تبعث بجمالها الوداع الذليل شفيحاً إليه، فلا يزال به حتى يجتذب عطفه، ويستهوِي حنانه_ والحنان أول مراتب الحب، والإشفاق أول مراحل الغرام_ حتى إذا فازت أخذت في إنمائه بالإيحاء، وبأساليب يعرفها النساء وحدهن: أساليب كأنها غير مقصودة، وهي مقصودة، وكأنها من المصادفات، وليست من المصادفات، وكأنها تصدر على الرغم منهن، وليست إلا من قصدهن، وهنا يقع الرجل في الشرك، وهنا يتغلب الحب، وهنا تتحكم المرأة، وهنا يعود ذلك الضعف المتصنع قوة وجبروتاً!

قالت (باسمة) إنها ليست أحياناً يا سيدي، إنها همسات الحب في أذن العاشق المهجور، أتعرف أنني كلما سمعت (طروب) تغنيها لم أملك دموعي!

إن الشعراء يجتذبون المرأة بمثل هذا الشعر الذي لا يخطئ سبيله إلى القلوب، فإذا اهترت مشاعرها له جاء الحياء فكم ما تحس ودفنه بين جوانحها حياً، لا لشيء إلا أنها امرأة يجب ألا تتكلم، ويجب ألا ينم وجهها عن السخرية بالغزل، وأغاني الغرام، أما الرجل فمباح له أن يبوح بما في نفسه، ومباح له أن يغري من يشاء بما شاء، ولقد يكون خداعاً، ولقد يكون ماجناً عربيداً، يلهو

بقلوب الحسان كما يلهو الطفل بلعبه، حتى إذا سئما داسها بقدميه، وتركها حطامًا.

ليس للمرأة المسكينة أن تقول: أحب، وليس لها أن تجيب عن ابتسامة بابتسامة، ولا عن زفرة بزفرة، وإنما عليها أن تصرف وجهها عن مائدة الحب، ونفسها تشتهي كل ما عليها من ألوان؛ لأنها صنم من جمال، وتمثال من حسن، لا يتكلم ولا يريد، فإذا ضحكت أحيانًا ضحكة لها رنين أو انزلق لسانها بكلمة تصور خلجة من خلجات النفس الحائرة، أو أدلت برأي في معنى الحسن_ سلقته الألسنة، وحملت نحوها العيون، وترحم الناس على الحياء والفضيلة، وهزّت العجائز رؤوسهن في رعب ودهشة، وبكين ماضي أيامهن، حين كانت الفتاة ترى ولا تسمع، ثم ينتقلن بالحديث إلى فساد الزمان، واضطراب الأوضاع، وضياع آداب السلف.

ويا ويل الشباب من المشيب، فإنه حينما يرى أنه تسلب من القوة، وماتت فيه غرائز اللهو، وقعدت به السن عن الاستمتاع بلذائد الحياة_ يمتلئ صدره على الشباب حقدًا، وتغلي نفسه منه غيظًا، ويرميه بالجنون والطيش، وتمزيق ستار الأدب، وتمريغ الفضيلة في التراب، ولو أن شيخًا هبَّ من نومه، فأحس بالشباب وقد عاد إليه، والفتوة وقد تمشت في عروقة الواهنة الذابلة، ونظر في المرأة فرأى شبيهة، وقد ارتد سوادًا، ووجهه وقد صقله الصبا، ومحا منه الغضون_ لغير رأيه في الفضيلة، وكان أوسع أفقًا، وأكثر تسامحًا، وأسرع إلى داعي اللهو استجابة، ولضحك مما كان يراه بالأمس من وجوب التحرج والتزُّمت، والابتعاد عن التمتع بزينة الله التي أخرج لعباده.

- هذا صحيح يا فتاة، ولكن ما لك تعذبين نفسك بهذا التفكير الذي لا يجزّ إليك إلا الحزن والبلبال؟!!
- إنني يا سيدي لم أخلق نفسي، ولو خيرت لاستبدلت بهذه النفس التي أشقى بها نفسًا جامدة بلهاء، لا تشعر بالمعاني السامية، ولا تهتز للجمال الروحي الذي فيه غذاؤها وريّها وحياتها، أنا يا سيدي فتاة منكوبة، أعيش حبيسة في هذا القصر، بين سادة يسومونني الذل والخسف؛ لأنني في أعينهم أمة اشتروها بمالهم، واشتروا معها في زعمهم كل ما فيها من حس وإدراك وشعور، فيجب ألا تحس وألا تدرك وألا تشعر، وبين خدم يحسدونني على منزلتي من سيدة القصور، ويدبرون لي المكاييد، وينصبون الحبائل، أرايت يا سيدي أسوأ من هذه الحال؟ أمة ذليلة محسودة، أمة تضطهد في ضوء النهار، وتحاك لها الدسائس في ظلمة الليل.
- أمة...؟ وهل أنا أمة...؟! ولكنهم أمانوا روحي، وقتلوا ما كان في نفسي من عزة، فلن أستطيع أن أتكلم!
- إنني أتألم لألمك يا فتاتي، تكلمي... تكلمي... فلن يزيح عن النفس أحزانها إلا البوح والبكاء.
- لك يا سيدي أبوح، ولمثلك أشكو، فإن لك قلبًا لا يضيق بفتاة بائسة مثلي، تلتجئ إلى ركن فيه لتعتصم من ويلات الزمان.

أنا لست أمة أبا محمد، إن لي قصة تستنزف ماء الشئون،
وتشير لواعج الشجون، ولكن لساني لم ينبس بها لأحد، وماذا في
أن تكشف ذات نفسك لقوم لا يلقونك إلا بالسخرية والتكذيب
والمراء! أنا لست أمة، ولكن أبي كان حاكمًا ببلاد الجركس، ولم
يكن له من ولد غيري، وكنت ريحانة حياته، وفلذة كبده، وحب
قلبه، وكان بي مشغوفًا، وبحبي كلفًا، وكان أبي شديد في مطاردة
اللصوص، مستقصيًا لهم، صارمًا في عقوبتهم، فقبض مرة على زعيم
من زعمائهم فأذقه صنوف العذاب، ثم وسطه في ميدان المدينة،
ويظهر أن أحد رجاله أراد أن ينتقم له، فرأى أشد ما ينتقم به منه
أن يختطف ابنته، وأن يذيقه لوعة فقدها _ فخطف في السابعة
من عمري، ونقلت إلى الشام في بيت نخاس، كان يحفني بعناية
فائقة، ويشملني بعطف سابغ، ويدلني تدليل الأب الشفيق، وقد
أحضر لي عجوزًا كانت تختلط بنساء أكابر، لتلقني آداب السلوك،
وآيين القصور، وكنت وأنا بين هذا الترف الكاذب، والنعيم الزائف
أسكب الدمع في خلواتي مدرارًا، وأكاد أبخع نفسي على أهلي حزنًا.
وقد أقمت عند صاحبي طويلاً حتى بلغت مبلغ الأنوثة الكاملة،
وتفتحت في أكمام الشباب الناضج، وأظهرت مني الخامسة عشر
مكونون الجمال، ومستور الفتنة، وإذا كان الشباب جمالًا، فأجمل
منه أن يكون جميلًا، وكلما تبلج حسني زاد صاحبي بي حفاوة
ولي إكرامًا، وذاع في دمشق أن لدى الحسين الدفاني النخاس
فتاة لم تحو قصور الملوك مثلها، فتزاحم على بابه سماسرة العبيد
والجوارى، يغرونه ببيعي، ويزيدون في ثمني بالمئات من الدنانير،

وكان الرجل يقابل إسرافهم في العرض بإسراف في الإباء، وكنت في أثناء هذه الضجة وهذه المغالاة بقدري، لا يفارقني خيال أبي، ولا تنأى عني ذكراه، وكان قلبي بالحنين إليه خفاقاً، وبالشوق إليه دائم الوجيب، حتى زارتنا في عصر يوم امرأة من بلاد الجركس، فجاذبتها أطراف الحديث، ثم انفلت في حذق ولباقة إلى السؤال عن أحوال البلاد، وعادات أهلها، كأنني لا أعرف من أمرها شيئاً، فانطلقت المرأة في القول، وأسهمت فيما يصيب البلاد من فوضى، وما فيها من عصابات ضارية، مردت على اختطاف البنات وبيعهن في أسواق الرقيق، وعلمت منها أن أبي بعد أن نكب على ابنته، برّح به الحزم فمات كمدماً، حينئذ يئست من الحياة، وعرفت أنني خلقت للذل والمهانة، وأن هذه الحلي التي تزين معصمي وصدري، والحرائر الثمينة التي ارتديها، إنما هي من عبث القدر وأضحيكه، وأنها أشبه بزخرف القبور، منها بزينة فتاة تستقبل الحياة.

ثم جاء والي دمشق ذات صباح، وطلب من صاحبي أن يسافر بي إلى مصر؛ لبييعني لسيدة القصور، على أن يتحكم بالثمن كما يشاء، فسافرنا إلى القاهرة، وعرضت على سيدة القصور، وكان العرض مؤلماً، ثم سئلت عن اسمي، فأطرقت وتبسمت ابتسامة حزينة واجدة، فصاحت سيدة القصور: سميتها (باسمة) ثم طلبت إلى الخدم، والجواري أن يدعوني بهذا الاسم، فبقيت في القصر منذ ذلك الحين أعامل معاملة الدُمي حيناً، ومعاملة الإماء الذليلات أحياناً، ارحمني يا سيدي... ارحمني... فإنني أتحرق إلى صدر رفيق يجب خفقات قلبي، وأشعر في دفته بالحب والحنان.

- يحزنني يا فتاتي أنك طرقت قلبًا مشغولًا، ملأ الحب كل حجراته فلم يترك فيه مكانًا لحب جديد.
- لك ألا تسمي ما أدعو إليه حبًا، سمّه عطفًا إن شئت.
- إن العطف أول الحب، وإذا رضيت بالعطف أول الأمر، فلن ترضي به إذا طال الزمان، إن قلبي يا فتاتي موحد لا يؤمن بالشريك.
- لقد حرمت يا حبيبي حب الأب، وحب الصديق، وأريد أن أعيش إنسانة تجتذب الحبيب، ويجتذبها الحبيب، تصبي الحسن وتصبو إليه، إنني من جيل تعنف فيه الغرائز وتشتد، وتسيطر فيه نزعات القلب على حكمة العقل، أريد يا حبيبي أن أحيأ ساعة واحدة أشعر فيها أنني لست أمة رقيقة!
- أليس لك في زوجك يا باسمة ملاذ يسكن إليه قلبك، وتهدأ في كنفه جوارحك؟
- زوجي؟ لا تمزح يا سيدي! بالله عليك لا تمزح! إنه ناطور الزواج كما يضعون في البستان ناطورًا ليزود الطير عن ثمره، زوجي؟ ذلك الذي أجبرني سيديتي أن أتزوج به؛ لتصونني من رجال القصر الذين كادوا يفترسونني بأعينهم، والذين كانوا يلاحقونني في كل مكان، ومن هو الذي ألزمت الزواج به؟ فدم، جاهل، مغفل، غبي متعاقل، سريع الغضب، بطئ المهمة، هذا هو الزوج الذي اختارته لي سيديتي، واختيارها وحي من الرحمن يجب ألا يرد، ولا يجادل فيه، ولا يسائل المرء نفسه عن سره! فهل لي في أن أطمع في عطفة منك تضيء ظلام حياتي؟!

- لا أكاد أفهمك يا باسمة، ولا أكاد أفهم معنى لهذا التشبث بعدما أظهرت لك من الانصراف عن كل ما يسميه الناس حبًا، وقد أكرمتني سيدة القصور بحفاوة لم يظفر بها سواي، وليس من سيمي أن أعبت بهذه الكرامة.

- أنت تحب سيدة القصور، وتؤثر حب السيدة على حب الجارية؛ لأنك تظن أن حب السيدات سيد الحب!

فظهر الغضب على وجه عمارة، وصاح: كفى يا جارية، فإن سيدة مصر أقدس من أن تصبح حديثًا للإماء! ولقد صبرت على ثرثرتك طويلاً، وتركت نار قلبك تأكل حطبها لتتطفئ، ولكن يبدو لي أن الرفق زادها استشراء، وأضاف إلى جذوتها حطبًا، اعزبي عني فقد طال بنا المقام، وأخشى أن ينالني من الجلوس إليك أشع المكروه.

- أعزب عنك بعد أن كشفت لك عن ذات نفسي، وفضحت لك خبيثة صدري؟! بعد أن طرحت حبي على أقدامك فقذفت به كما تقذف النعل الخلق؟! وبعد أن سكبت دموعي على قلبك الصدا فلم يزد الماء إلا صلابة ويُسًا؟! أعزب عنك بعد ان أهنت أنوثتي، ودست بقدمك على أشرف ما أعتز وتعتز به كل امرأة من حياء وخفر وإباء؟ ويل لك مني! إن كل شيء عندنا_ معشر النساء_ أمم، إلا أن تجرح المرأة في كرامتها، وإلا أن تقدم جمالها الفاتن لجلف مثلك، فينحيه عنه بالأكف في سخط وأنفة، كأنه كأس مسمومة، أو طعام ولغت فيه الكلاب! ويل لك مني، وويل لكل من يناصرك،

لن تفلت من حبائلي، إننا_ بنات الجركس_ نقتل الرجال:
إما بالحب والاستهواء، وإما بالكيد والدهاء، فخذ حذرک
فإنک لن تنجو مني يا رجل! ثم قامت غاضبة، وترکت عمارة
في ذهول وعجب، وهو يتطلع في أنحاء الحجرة كالمشدوه
المأخوذ، ثم ضحك ضحكة جافة مضطربة، وضرب كفاً
بكف، وقال: حقاً إن مصر بلد العجائب! ماذا كان شأنی
بهذه الفتاة؟ ومن رمانی بهذه المجنونة، إنها ستكون البعوضة
التي تدمي مهجة الأسد، وستعمل على تكدير عيشتي،
وتنغيص حياتي، وربما أشعلت بيني وبين سيدة القصور فتنة
لا أستطيع لها إطفاء، وربما نشرت بين رجال القصر أسرار
حب قدسي أبلغ في كتمانہ، أكان يجب أن أجاريها وأن
أخدعها، وأن أظهر لها الحب كالمفتون بها المدله بجمالها؟
لا، إن شيئاً من ذلك أو دونه لو ظهر لأفسد ما بيني وبين سيدة
القصور، ماذا أعمل؟ إني بالغت في اتقاء دسائس الرجال،
ولم أحسب لدسائس النساء حساباً، إن من ضروب العداوة
مالا يستطيع درؤه، وإن من المصائب أن يكون عدوك
ضعيفاً؛ ولكن سأدّرع بالحذر، ثم يكون بعد ذلك ما يكون،
وقام وصدرة مثقول بالهموم، ثم غادر القصر.

وفي تلك اللحظة التقى ابن دخان بياسمة في أحد أبهاء القصر،
وكان لها عاشقاً، وبها صباً مفتوناً، وكانت تصد عنه في إغراء،
ثم تجتذبه لتعرض عنه من جديد، وهي في قرارة نفسها تنفر منه،
وتستنكر تصابيه، وطرائق غزله، فلما اقترب منها قال: كيف أنت
اليوم يا نور عيني؟ ألا تزالين في دلالک القديم؟!

- كما أنك لا تزال في ضلالك القديم، دعني بالله أسر في
طريقي، فإنني كرهت الدنيا ومن فيها!

- الدنيا بخير يا جنتي، والرواتب تصرف في كل شهر لجواري
القصر، وفوق كل راتب قبلة إلا منك، فقد أعتني فيك
الحيل!

- أنت رجل فارغ القلب، لا تأبه إلا للرواتب، ودخل الدولة
وخرجها، أما ما يصيب صديقاً، أو يمس شرف فتاة ضعيفة
فقدت الحامي والنصير، فليس من شأنك في قليل أو كثير!
إنني سأغادر القصر إلى الأبد، إن هذا اليمني الأفق المسمى
بعمارة، أطغته منزلته عند سيدة القصور، فاتخذ عطفها عليه
سلاحاً للعريضة والفجور، لقد ضقت بهذا الرجل ذرعاً، إنه
يلاحقني أينما رأني في القصر، ويضايقني بالحاحه وتغزله
السمج، ويريد أن يفرض علي حبه فرضاً، ويظن المغرور
أن الله اختصه برواء الحسن وكمال الظرف، وأن امرأة لا
تهيم به مدخولة العقل فاسدة الحس، قابلني في هذا الصباح
فحاولت الفرار منه فلم أستطع، وأخذ يصب علي شواظاً من
غزله المفضوح، فلما زجرته وسخرت منه احتدم غضبه،
وتكشف لؤمه، وتوعدني بالشر والإيقاع بي عند سيدة
القصور، وبطردي من القصر!

- طردك أنت من القصر؟! أنت... وماذا يبقى فيه إذا غابت
عنه شمسه؟! ماذا يبقى فيه وأنت بهجته وزينته؟! ولكن هذا

اليمني الثقيل الوقح، هو الذي يطرد من القصر، ويزجر منه
كما يزجر الكلب.

- إن سيدتي متعلقة به...

- ومن هذه الناحية ستأتيه النكبة، دعي هذا الأمر لي يا بنية،
فلن يضايقك اليمني الأحمق بعد اليوم.

- وكيف؟

- سأفكر، وستكون المؤامرة محكمة لا يجد منها اليمني منفذاً،
ولكنني أطلب أن تزيد في التودد إلى زوجك؛ فإني أعتمد
عليه في مثل هذه الأمور، وكيف حالك معه؟

- إنه زوج شرعي وكفى!

- لا يا باسمة... صانعيه واخدعيه، وأظهري له الحب والميل
حتى يتم كل شيء. فظهر الابتهاج على وجه باسمة... ولكن
ابن دخان عاجلها قائلاً: ولكنني أطلب أجراً على هذا العمل
المحفوف بالمخاطر.

- ما هو؟

- قبلة واحدة من فمك الحلو.

- قبلت على أن يؤجل هذا الأجر إلى أجل غير بعيد، ثم
فرت من بين يديه كالظبي النافر، وذهبت إلى مسكنها
الخاص بالقصر، ولما رأت زوجها مجاهد الرملي ألقته
بنفسها بين يديه ضاحكة معرودة، عابسة بشاربيه ولحيته؛
فدهش (مجاهد) لهذا التغير المفاجئ، وقد كانت منه شديدة
النفار، ممعنة في الدلال، فما استطاع إلا أن يضمها ضمة

العاشق المهجور، ويملاً وجهها بقبلاته، ثم قال: ما هذه
النشوة يا باسمة؟ فقالت: هل على فتاة في أن تحب زوجها
من حرج؟

- لا، غير أنه حب مرتجل!

- إنه ليس مرتجلاً يا مجاهد، إن العجائز قاتلن الله _ علمتني
أن الرجل لا يحب إلا إذا جفته المرأة وتمنعت عليه، وقد
أخذت أعمل بنصيحتهن، وأظهر لك النفور والبغض؛ لتزيد
بي شغفاً، حتى لم أعد أقوى على هذا الرياء، وعزّني الصبر،
ووهن الجلد، وطغى سلطان حبك على قلبي فلم أستطع له
كتماناً... فارحمني يا حبيبي؟

- أرحمك؟ أرحمك بمائة قبلة وألف ضمة، وبأن أكون لك
عبداً مدى حياتي؟

- وأن تدفع عني شرّ الأشرار، وكيد الكائدين!

- بروحي...

- إنني لم أرد أن أخبرك منذ حين بشأن هذا الشيخ اليميني نزيل
القاهرة، الذي أخذ يتردد على القصر.

- ما شأنه؟

- شأنه أنه أخذ يضايق زوجتك، ويبالغ في احتقارها، ويدس
لها عند سيدة القصور، وقد اتفقت مع ابن دخان على إبعاده
من القصر، وسيخبرك إذا قابلته بكل شيء، وستكون هناك
مكافأة جزية لمن يقوم بهذا الأمر.

- عظيم، كسبنا مالاً، واسترجعنا رضا زوجة رائعة الحسن في صفقة واحدة.

ثم مرت أيام قضاها ابن دخان في تدبير المؤامرة، واختيار من يشترك فيها، وعقدت عدة مجالس حضرها مجاهد الرملي، وبعض الجنود، وأكد ابن دخان أنهم لن يصيبهم منها ضرر البتة، وأنهم على الضد من ذلك سينالهم رضا سيدة القصور، وترتفع عندها منزلتهم، والتقت باسمه به يوماً، فقص عليها المؤامرة مفصلة، ووكل إلى دهاثها وحذقها طريق الشروع فيها، والإفضاء بها إلى سيدة القصور، ثم قال: إنها ليست من صنعي يا باسمه، وإن عقلي لا يستطيع أن يصل إلى هذه الغيابة.

فقلت في استنكار: من صنع من إذا؟ وهل كان من الحزم أن يطلع عليها غير ذلك العدد القليل الذي اشترك فيها؟!

- إن الذي وضع المؤامرة أشد مني حزمًا، وأكثر احتراसा؛ لأنه لم يرض أن يمدَّ فيها إصبعًا إلا بعد أن حلفت له بكل محرجة ألا أبوح باسمه.

فنظرت إليه في سحر وفتنة وقالت: حتى ولا للمدينة لك بقبلة؟ فانهزمت في الرجل كل خصائص الرجولة وقال: أنا حلفت، ولكن القبلة تعدل ألفاً من كفارة اليمين...

- تعدل الدنيا وما فيها، اعلمي يا فتاتي_ وفقك الله_ أن مدبر المؤامرة هو الشيخ زين الدين ابن نجا المشرف على خزائن الكتب.

- ذلك الشيخ الورع الزاهد، الذي لا يتسم! والذي كلما رأيته
همهم بأدعية واستغاثات، كأنما رؤية الجمال إثم من أشد
الآثام!

ثم انطلقت باسمه إلى القصر، فرأت سيدة القصور تقرأ بعض
الصحف التي يرسلها إليها جواسيسها في كل صباح، فلما رأتها
قالت: أين كنت يا باسمه؟ ولم أراك عابسة حزينة؟

- إن حبك يا مولاتي والخوف من أن تمسك هبة من النسيم،
هما اللذان يشغلان قلبي، ويكدران صفوي.

فقهقتها سيدة القصور وقالت: لا تتعبي رأسك الجميل يا
فتاة، ولا تجني على جمالك الفتان بالخوف علي، فإنك إن فعلت
أذبلت أجمل زهرة بالبستان الكافوري. ما الخبر؟

- لا شيء، أو هو شيء يكفي فيه التحرز والاحتراس.

- أي احتراس؟ ومن أي شيء؟

عند ذلك استنجدت باسمه بأدق مواهبها، وأروع أفانينها،
وأخذت في الحديث في تخرج وتلعثم، وكان صدرها يخفق،
وعيناها تتحير فيها الدموع، وصوتها يرتعد... ثم قصت على سيدتها
ما اتفقت عليه مع ابن دخان من تفصيل المؤامرة المزعومة، وأن
عمارة الذي يبغض المذهب الفاطمي بقلبه، ويناصره بلسانه _ إنما
استدعاه طلائع ابن رزيك من مكة؛ ليكون آتته في الكيد والقضاء
على الفاطمية، وأنه قد تآمر مع بعض على اغتيال الخليفة الفائز،
والقضاء على سيدة القصور، وإجلال ابن رزيك على عرش مصر.

- من الذي كشف عن هذه المؤامرة؟

- إبراهيم ابن دخان.
- هذا غير معقول يا فتاة؛ إن عمارة عاهدني ألا يخونني، ثم إن في الرجل صفات تأبى عليه أن ينغمس في هذه الحمأة.
- إنه داهية يا سيدتي، وهو يتخذ من سحر شعره ولطف حديثه، وظهوره بمظهر الرجولة والنخوة ستارًا يخفي به مكره ومحاله.
- أنا لا أكاد أصدق، عمارة؟! يدس لي؟! ويعمل على قتلي وتقويض ملكي...؟! لا... لا... هذا إذا عاد الصباح ظلامًا، والأسد ثعلبًا، والدواء سمًا زعافًا...
- أنت واثقة يا باسمة؟
- تمام الوثوق، وقد كان من أسباب حزني خوفي من أن تماريني وتنفضي عنك الحذر، والقضاء على الجريمة والمجرمين.
- قد يكون إن هؤلاء الغرباء الذين يفدون على مصر لا تخلو حقايبهم من دسائس ومؤامرات، إذا فمبالغته في التقرب إليّ والإخلاص لعرشي كانت رياء في رياء.
- لو لم يكن الرجل دسائسًا ما لفظته بلاده، وهو يدّعي أن له فيها الأموال، والأتباع، والجاه العريض.
- هذا صحيح، دعيني وحدي قليلًا يا فتاة، فإني أريد أن أفكر. وبعد ساعة أو ساعتين أمرت راجحًا أن يدعو إليها ابن دخان، فلما دخل انكبَّ يقبل أطراف قدميها، ثم وثق مطرقًا واجمًا وهو في سمت الخدام المخلصين، فسألته سيدة القصور عن مجمل الخبر، فقال: جاءني خادمي (عيد) السوداني يومًا، وعليه آثار الخوف والاضطراب، وفي وجهه لمحات من التردد والحيرة، فسألته عن

شأنه؟ فراوغ وتلعثم؛ فلما أثقلت عليه قال: إننا جميعاً عزمنا على أن نلقي إليك جملة الخبر، فانتظرنني حتى أعود، ثم عاد ومعه من الجنود: عمران النهري، وعكاشة الحداد، ومجاهد الرملي، فأخبروني أن عمارة أغراهم بالمال، ووعدهم بالمنصب، وذهب معهم إلى قصر ابن رزيك، فزادهم هذا إغراء، وأقسموا أمامه على قتل سيدي الخليفة ومولاتي، ولكنهم بعد أن وزعت عليهم الأموال خارت عزائمهم، وعادوهم إخلاصهم المكين للخليفة ومولاتي، وأوا_ كما قالوا_ أن خزائن الدنيا جميعاً لا تعري بأن تمس شعرة من رأس مولاتهم، وألحوا علي في كتمان الخبر، ولكنني خفت أن تكون خيبة عمارة وصاحبه في هذه المؤامرة دافعاً إلى الشروع في غيرها، فأسرعت إلى جاريتك باسمه، ورجوتها أن تبلغك أمرها.

- لقد أحسنت يا ابن دخان، ثم أشارت بكفها فخرج، وبينما كان ابن دخان يمر بدهاليز القصر رآه مجاهد الرملي، فاختم في وراء ستار؛ لأنه كان مع اشتراكه في الدسياسة يكره الكلام فيها، وفي تلك اللحظة مرت باسمه، فقال لها ابن دخان: الآن وجب قضاء الدين يا فتنة العين، وريحانة النفس، ثم وثب عليها فطوقها بذراعيه، فلم تمنع ولم تعمل على إبعاده، فانكب على وجهها بشره يملؤه قبلاً، يزيدا الحب لذة ورنيناً.

رأى مجاهد كل هذا فغلى دمه من الغضب، وظهر في عينيه السخط والحقنق، وتحركت في صدره أفاعي الانتقام، ولكنه كظم غيظه، وانتظر حتى انصرفا، فخرج من وراء الستار كالمجنون الذي

طار عقله وهو يتمتم: ويل لها! ويل له! لأجل مال هذا الدميم كانت تتدلل علي وتنفر مني وتزورُّ عني، وتقابل توسلات حبي بالسخرية والاستهزاء؟ والله لأبطشَنَّ بهما معاً!

قضت سيدة القصور أياماً تقلب الرأي في أمر عمارة. حتى انتهى بها العزم إلى وجوب البطش به، ورميه في بئر القصر المعروفة ببئر الصنم، التي كثيراً ما ابتلعت أعداء الفاطميين، فنادت مؤتمن الدولة، وأمرته بدعوة عمارة إلى قصر الزمرد.

وفي غد ذلك اليوم جاء عمارة، فوقف مبهوتاً لا يدري لكل ما يرى ويسمع سبباً، ثم التفتت سيدة القصور إلى ابن دخان، فأخذ يدس ما حاك من دسياسة، وعمارة في ذهول، يرى البهو يدور بمن فيه، ثم ينقلب فيراهم في سقفه لا في أرضه، حتى إذا أتم ابن دخان دعواه، اتجه إلى الجنود وقال: وهؤلاء الجنود المخلصون الذين أرادوا أن يستغوا المتآمرين حتى يوقعوهم في الشرك، سيقدمون إلى مولاتي ما يؤيد وقوع هذه المؤامرة الخسيصة. فقالت سيدة القصور: وأين مجاهد الرملي؟ فإذا صوت يصيح في دهليز البهو: هأنأ قادم إليك يا مولاتي. ويدخل مجاهد فينظر مرة إلى باسمة. ومرة إلى ابن دخان، ثم يصيح: هذه دسياسة كاذبة ملفقة يا مولاتي... إن زوجتي باسمة هذه هي التي نسجت خيوطها الواهية مع ابن دخان، وهؤلاء الجنود الكاذبون وعد كل واحد منهم بمائة دينار؛ لقاء كذبه وزوره، وقد وافقتهم على الاشتراك معهم، ولكنني رأيت آخرًا أن هذه الوشاية قد تحدث فتنة، وقد تدفع الناس إلى التحدث عما يسمونه: دسائس القصر، فأسرعت إليك يا مولاتي لأعيدها إلى الرمس الذي خرجت منه، ولأقتلها في مهدها.

شمل الصمت والذهول جميع من حضر، وأحسَّ عمارة أن هاتفاً يهمس في أذنه: لقد نجوت، واصفر ابن دخان، وارتعدت أوصاله، وصاحت الأميرة في غيظ وحنق: وما برهانك يا مجاهد؟! - برهاني: أنك تجدين في خزانة ديوان الرواتب أربع صرر، بكل واحدة منها مائة دينار، وقد كتب على كل صرة منها اسم واحد منا؛ لأننا لعلمنا بمخاتلة ابن دخان ومخادعته، خفنا أن يماطلنا في نقد المال بعد إتمام الدسيسة، فحتمنا أن يكتب بيده اسم كل واحد منا على صرته.

فاتجهت الأميرة إلى مؤتمن الخلافة وقالت: اذهب مع هذا الرجل (وأشارت إلى ابن دخان) وأحضر الصرر إن وجدتتها.

فذهب وابن دخان يجر ساقيه، ثم عادا ومعهما الصرر الأربع، وقد كتبت عليهما أسماء الجند كما قال مجاهد. فقالت الأميرة: لقد انجلى الحق، وأمرت بأن يطرد ابن دخان من رياسة ديوان الرواتب، وأن تطرد باسمه من القصر، وأن تضرب عشرين سوطاً، وأن يضرب الآخرين خمسين سوطاً.

ثم اتجهت إلى عمارة وقالت: أسأنا بك الظن أبا محمد، وطفقت تعتذر إليه وتستعطفه، وتشكو إليه ما حولها من الدسائس التي تحاك في ظلمة الليل وظلمة

النفوس، فتقدم عمارة يقبل يديها وقدميها وهو يبكي ويقول: والله يا مولاتي لو وسوس إلي فؤادي مرة أن أمس شعرة لفاطمي أو فاطمية لخلعت فؤادي من صدري؛ فمست كتفه بلطف وقالت: أعود إلى ما كنت لك... وتعود إلى ما كنت لي... ونسى هذه العاصفة الكاذبة التي كانت سبباً في توثق ودادنا.

الفصل الثامن

مرت شهور وأيام مات في أثنائها الخليفة الفائز، فقد أصابته حمى لم تمهله أياماً حتى قضى، وما كادت سيدة القصور تمسح أول دمعة عليه حتى أشارت بتولية عبد الله ابن أخيها يوسف؛ لأنه كان صغير السن، وفي ذلك تمكين لسلطتها في الدولة. فقد كان في الحادية عشرة، فلقبه ابن رزيك: بالخليفة العاضد بالله، وقامت له البيعة بقاعة الذهب في يوم حافل، ووقف عمارة بين الحشد الجامع من المبايعين ينشد:

لئن قلَّ صبر فالمصاب عظيم
وإن جلَّ شكر فالنوال جسيم
لئن عرضت للفائز الطهر نقلة
فأنت أمير المؤمنين مقيم
وإن سلبتنا جنة الخلد قُربه
فقربك منا جنة ونعيم

ثم عدد مآثر الفاطمية والفاطميين، فأجاد وحلق.

وبعد أيام ذهب عمارة للقاء سيدة القصور، فأراها في حزن مقعد مقيم، فأخذت يعزيها في الفائز، ويهدئ من ثورة حزنها، فقالت: والله ما على الفائز أبكي يا عمارة، وإنما أبكي على دولتنا؛ لأنني منذ تولية العاضد وأنا أحس شعورًا غريبًا لا أعرف كنهه بأنه سيكون آخر خلفائنا، وقد كنت أبيت أن ألقبه بالعاضد، ولكن هذا الأرمني ابن رزيك أبى إلا هذا اللقب... أتدري أنني لشدة ضيقي بهذا الأمر، ولخفاء سببه علي ذهبت إلى خزانة الكتب بالقصر؛ لأبحث في الأوراق القديمة الخاصة بدولتنا، فعثرت على ورقة كان طلب جدي المعز من قاضي مصر إذ ذاك_ أبي طاهر محمد ابن أحمد_ أن يكتب له فيها ألقابًا يلقب من يأتي من الخلفاء، فكتب القاضي له ألقابًا كثيرة، وكان لقب العاضد آخر هذه الألقاب؟! فحزنت حينما رأيت الورقة، وعلمت السر في تطيري... إن روح الإنسان تلتقط الغيب أحيانًا، وكثيرًا ما يسر الإنسان بغير سبب ظاهر، فتفد عليه أسباب السرور، وكثيرًا ما يحزن كذلك، فيلتقي بما يحزنه في الطريق... قاتل الله هذا الإنسان! لقد وضعه الله في برزخ من الآلام: فلا هو من البهائم؛ فيعيش في ظلام الجهل هانئًا، ولا هو من الملائكة؛ فيعيش في صفاء من النور سعيدًا.

- هذه أوهام يا مولاتي، وإن الخلافة بك وبالمخلصين من أنصارك في حصن حصين.

- أرجو أن يكون الأمر كما تقول! آه! ليتني كنت رجلًا! إن القدر أحيانًا يضع نفوسًا في غير أجسامها، ويهب السيف

لغير حامله... علمت أن ابن رزيك في هذه الأيام يتبجح بالعظمة، ويكثر من الأعوان، ويلوي لحيته إلى أنفه ليشم رائحة الخلافة، وخير له أن يرعوي ويزدجر، فإن دمالج سيدة القصور أقوى من رماحه وسيوفه، وإن سيدة القصور لا تحارب بالرجال، وإنما تحارب بجيش من الآراء، يأخذ أعدائها بغتة وهو لا يشعرون، آه! أريد أن أكون رجلاً لأبرز لهؤلاء الرجال من وراء الستار... ثم تضحك وتقول: ما هذا الجنون الذي أصابني؟! وهل أجد رجلاً كابن رزيك بين رجال دولتي؟! إنه الملك الصالح! إنه أبو الغارات! إنه ناصر الفاطمية بيده ولسانه وجنده! حقاً إن النساء ناقصات عقل ناقصات دين، ولأمر ما حرمت المرأة النبوة والإمامة والقضاء.

أما عمارة: فإنه تحير في أسباب اضطرابها وتناقضها، وتلويحها باسم ابن رزيك مرة بالسخط، ومرة بالرضا، فيستأذن وينصرف. ثم يأتي شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، فتحتفل القاهرة باستقباله، وتظهر المدينة بالليل كأنها شعلة من نور؛ لكثرة ما يسرج فيها من المصابيح التي تعلق فوق المآذن والدور والحوانيت، وفي كل مكان، ونشاهد في القصر حركة غريبة، ونجد سيدة القصور في شغل شاغل، ونرى اجتماعات كثيرة تقام في سرايب القصر، تحضرها الأميرة ومؤتمن الخلافة، وابن قوام الدولة صاحب الباب، والأستاذ المحنك عنبر الربيعي، وفي أحد هذه الاجتماعات أخذت الأميرة تعدد سيئات ابن رزيك، وتذكر مطامعه في الدولة، وتهول فيما

أصاب الخلافة من الضعف في أيامه، وأنه يضعفها قصدًا ليلتهمها، فقال مؤتمن الخلافة: إن الخلافة ضاعت هيبتها منذ أن سيطر عليها بدر الجمالي الأرمني في أيام المستنصر، وقد زاد ضعفها بهذا الأرمني الجديد المتبجح، الذي يلقب نفسه بالملك الصالح. وقال ابن قوام الدولة، إن مظالمه عمت مصر جميعها، حتى أصبح المصريون يتمنون موته. فقالت سيدة القصور: وكيف نستريح من شره؟ إنه يزور القصر في كل ليلة بعد العشاء الآخرة، وهو يدخل من باب العبيد إلى الدهليز الموصل إلى قاعة الفضة، حيث يجلس الخليفة في رمضان، وإنني سأخلي الدهليز ليلة غد من المارة قرب وصوله، ثم إن بالدهليز خزانة يمكن للجنود أن يختفوا بها مع رئيسهم ابن الراعي، فإذا مرَّ ابن رزيك شغلته ببعض الأحاديث، وأصابني نوبة سعال يسمعها الجند في الخزانة، فينقضون عليه بسيوفهم.

فقال عنبر الربعي: هذا حسن... ولكن أترون أن أتباعه وجنوده لن يثورون إذا علموا بقتله؟!

فقال مؤتمن الخلافة: دع هذا لي فإن عندي من جنود السودان عددًا يحيل نهار القاهرة ليلاً.

وقالت سيدة القصور: إن من السهل أن ندعي أننا لا نعرف من قتله، ويجب لأجل ذلك ألا يكون الجنود من السود، كما يجب أن يغيروا أزيائهم، وأن يلبسوا ثياب عامة المصريين.

فقالوا جميعًا: نعم الرأي يا مولاتي، وسيظهر أديم مصر من ابن رزيك غدًا، ثم نهضوا للقيام، وكررت الأميرة وصيتها بالكتمان والتدبر، وإحكام المؤامرة.

وفي الليلة الخامسة من رمضان جاء طلائع على عادته يصحبه ابنه مجد الإسلام، ودخل من باب القصر، ونفذت المؤامرة كما صورها ابن قوام الدولة، لم يخرم منها حرف، وهجم جندي على مجد الإسلام بسيفه فشطر عضده، ثم وثب ابن الراعي على طلائع فطعنه في نحره، ولما وصل الخبر إلى سيدة القصور أمرت الجواري والغلمان بالولولة والصياح والاستغاثة، وأمرت الجنود بإظهار الألم، وبالجري هنا وهناك للقبض على المجرمين، وبثت أعوانها السريين بالقاهرة، يشيعون أن جماعة نقبوا سور القصر واغتالوا ابن رزيك، ثم إنها أرسلت إلى مجد الإسلام ابنه، فجاء إلى القصر وقابلها في حشد من الأستاذين، فلاقتة باكية نادبة، وأشارت من بعيد بأن شاور بن مجير والي قوص، وأكبر منافس للملك الصالح هو مدبر هذه الجريمة. ودخل عمارة وقد أذهله الحادث، وأبكته المصيبة، فأنشد قصيدة طويلة في رثائه، وكانت الأميرة تبكي بعد كل بيت بكاء الثاكل، وتتلوى من الحزن، حتى اضطر الأستاذون إلى إسكات عمارة، وانفض المجلس.

وبعد أيام اختلت الأميرة ببعض الأعوان السريين، فأخبروها أن جنود ابن رزيك وأنصاره يتأهبون لثورة جامحة، فدعت رجالها لمشاورتهم في الأمر، ورأت لدرء الفتنة أن يتولى مجد الإسلام رزيك مكان أبيه، ثم نظرت إلى مؤتمن الخلافة وقالت: أشغل دائماً عدوك عنك بمحباته، حتى يدع لك وقتاً تستأصل فيه شأفته، وليس بالثمن الغالي أن يحكم رزيك شهوراً، لكيلا يبقى رزيكي بأرض مصر، ولكي يستقل العاضد بأمور الخلافة غير مزاحم ولا معارض، إن الأمر يتطلب زمناً طويلاً للتفكير، وشرُّ الرأي الفطير.

الفصل التاسع

خرجت (باسمة) من القصر مطرودة مجلودة، فحملها بعض الجند إلى مسكن زوجها، فمكثت به أيامًا وزوجها محزون حنق، يأنف من النظر إليها أو القرب منها، حتى إذا نقهت أرسل إلى ابن دخان، فلما حضر قال له مجاهد: أنت أيها الشيطان سبب إغواء هذه المرأة وإفسادها، فاحمل خطيئتك على كتفيك، فليس لي بها من حاجة، خذها لا بارك الله لك فيها، فإنها طالق، وإن الكريم لا يشرب من غناء ولغت فيه الكلاب؛ فزارت (باسمة) كما تزأر اللبوة الهائجة، وقالت: لقد رميتني بالإفك... وإنني والله ما فرحت بزواجك، ولقد سرنني طلاقك، ولو كان الطلاق من حق المرأة لكنت البادئة به منذ حين... عجبًا للرجل منكم! يلوي رأسه للمرأة كبيرًا ويقول: أنت طالق، ولو كشف عنه الغطاء لعلم أن المرأة طلقته قبل ذلك ألف مرة... إن الطلاق نعمة من نعم الله إذا تزوجت المرأة بمثلك، أما أن يأخذني ابن دخان أو لا يأخذني فذلك مالا شأن لك فيه، ولن أريد أن أكشف لك عن طهارتي مع ابن دخان، فإنك عندي

دون من تبسط له حجة، أو يقدم إليه اعتذار... هلمَّ يا ابن دخان
خذني إلى حيث شئت.

خرجت تتعثر هي وابن دخان، فقال لها وهما في الطريق: أنا
لا أريد أن أبدأ الحديث يا باسمة؛ فإني أخشى أن أزل، فأنا رجل
صناعته جمع الأرقام لا تزويق الكلام، ولكني عبدك وطوع يمينك،
أمد يدي إليك مد الخادم يده لسيدته، لا مد الآمل إلى أمنيته،
وأين أنا منك يا باسمة؟! أنا كلب باسط ذراعيه بالوصيد ليحرس
سرًا سماويًا وملكًا أرضيًا! فأرسلت (باسمة) ابتسامة خفيفة
اقتحمت طريقها من بين شفيتها العابستين، وقالت: إن الكلاب
تعض أحيانًا.

- أنا كلب أليف أمين يا أميرتي.
- ولكنني أكره نباح الكلاب كلما رأيت شخصًا غريبًا.
- كلبك تكفيه الغمزة والإشارة، فلو رأى الدنيا كلها حولك،
وأشرت إليه بإصبع لربض راضيًا معتبطًا.
- أنت لطيف يا إبراهيم!
- أنا لطيف... لطيف جدًا... وسعيد... سعيد جدًا... لأنني
لطيف، أعلمت أن مؤامرتنا على عمارة اليميني نجحت!؟
- نجحت! إن جسمي لا يزال يلتهب من السياط! ففكر كما
يفكر الناس يا إبراهيم لا كما يفكر الكلاب.
- إن كنت كاذبًا فلا أبقى الله لي رأسًا ولا ذنبًا... لقد نجحت
المؤامرة، أليس من أكبر آثارها أنني أتحدث إليك الآن، وأن

آمالي التي طفقت أكتمها في صدري سنين طوال أخذت
تطل برؤوسها؟! هلم إلى منزلي لنفكر في شئون الزواج.
- قبل أن تفكر في هذا يجب أن أتحدث معك طويلاً...

دخلا منزل ابن دخان، حتى إذا استقرا في حجرة مظلة على
الخليج، التفت (باسمة) إليه وقالت: أرايت كيف كان جزاء خدمة
هؤلاء الفاطميين؟! انظر كيف بعنا أنفسنا لهم، وكيف عادينا
الناس لأجلهم، وكيف تجسنا، وكيف وقفنا خلف الباب نسترق
الأحاديث، وكيف عرضنا أنفسنا للسم والقتل من أعدائهم؟! ثم
انظر ماذا كان الجزاء الأوفى على هذه الخدم؟! كان أن نطرد ونجلد!
سحقاً لهم ولدولتهم! والله لأنتقم منهم.

- أنا طوع أمرك، فانظري ماذا تأمرين.

- ثم هذه الصلفة المنتفخة سيدة القصور، التي تدعي حكمة
سليمان، ومكر هامان، وأن فيها أسرار المعز، وسطوة
الحاكم، والتي لا تعيش إلا لنصب الأشرار، ودس
الدسائس، هؤلاء الفاطميون قتلوني بغرورهم وجنونهم، كأن
الله لم ينشأ الكون إلا لهم، ولم يخلق الفضائل إلا انتظاراً
لقدمهم... احتفالات ومهرجانات، وأعياد، وطبل، وزمر:
هذه هي دولتهم، وهذه هي ألعيبهم التي يلهون بها العامة،
ويشغلونهم عما يحق بهم من الظلم، والعسف، واغتصاب
الأموال، وإلا فمن أين هذه الجواهر المكدسة في القصر،
وهذه الكومات من الذهب والفضة؟ ولقد بالغوا في المظاهر
إلى حد البله، حتى لقد كدت والله أفضح نفسي، وقد ملكني

الضحك حين أخذنا نلبس الخليفة الفائز شعار الخلافة...
تصور غلاماً في الخامسة يلبس عمامة أبيه، وجبته وويلسانه!
لقد ملأنا العمامة قطعاً، حتى إذا وضعناها على رأسه مال عنق
المسكين، ولم يطق لها حملاً،

فحملها أستاذ لتنوب يده عن رأس سيده، أما الجبة: فقد غرق
البائس فيها، واختفى بين حُلِيِّها وزهبيها. لا... لا... إن دولة الباطل
ساعة، وأرجو أن تكون قد دنت نهاية هذه الساعة.

- لقد صورت ما في نفسي يا باسمة، فقد أصابنا من الفاطمية
ومن سيده القصور_ بعد طول الخدمة وإخلاص النصح_
مالم يصب أحداً، ولكن الوقت لم يحن بعد لتسديد السهم.

- هل رأيت زين الدين ابن نجا؟

- لم أره منذ حين، وأظنه فرَّ من مصر بعد أن زَيَّنَ الدَّين
بمؤامرتة على عمارة.

ثم مضت فترة من الزمن بنى فيها ابن دخان بباسمة، ومضت
فترة أخرى مات فيها الفائز، وقتل طلائع ابن رزيك، وتولى ابنه مجد
الإسلام، وهنا تيقظ نار الأحقاد بصدر(باسمة) فقالت لزوجها:
أصدقت تلك الأكذوبة التي تشيعها العامة؟ وهي أن أنصار شاور
ابن مجير نقبوا جدار القصر وقتلوا طلائع!؟

- هذا كلام يقال لغيري وغيرك، على الرغم من بكاء سيده
القصور عليه وطول عويلها؛ لأنها كما تقول العامة(تقتل
القتيل وتمشي في جنازته).

- هذا لا شك فيه، ولا أظن أن رزيك ابن طلائع صدقها، ولكنه جبان جشع، اكتفى بمكان أبيه من الوزارة ثمناً لرأسه، وسيبقى العوبة في يد سيدة القور ورجال القصر؛ لأنه خائر العزم، ضعيف النفس، ليس فيه صفة من صفات أبيه، التي كبحت جماح الأميرة، وكسرت شوكتها، وألزمتهأ حدها، وستتركه سيدة القصور قليلاً، حتى تحين الفرصة لاغتياله، واغتيال أهله وأنصاره، وحينئذ تستقل بالملك والخلافة، وتعيد كما كررت على سمعي كثيراً أيام الحاكم بأمر الله.
- إنني أنظر بعيني، فلا أرى في رجال دولتنا من يستطيع أن يكون نداً لهذه المرأة الجبارة، فقد قتل طلائع ابن رزيك جميع منافسيه ليخلو له الجو، وكأنما قتلهم ليخليه لها!
- نعم قتلهم جميعاً إلا واحداً، وهو شاور ابن مجير والي قوص، وقد كنت صديقة له في القصر، أو كما يسميني وكيلته، أو كان كما يقول الناس جاسوسة له، وشاور رجل شجاع قاس، طماع كثير الأتباع والأنصار، فلماذا لا ندفعه إلى اهتبال الفرصة، والقدوم بجيشه إلى القاهرة لاستئصال أبناء رزيك، وقتل الخليفة وسيدة القصور، والجلوس على عرش الخلافة!؟
- يا حبذ لو صحت الأحلام! إذا سيكون لك ولي المقام الأول في القصر.

استمرت هذه الفكرة تدور في رأسيهما أياماً، حتى إذا خمرت غادرا دارهما بالقاهرة، وخرجا إلى الفسطاط مع بعض الخدم، واستأجرا سفينة إلى قوص.

صعدت السفينة، وكان الوقت خريفاً، والجو إلى البرودة أميل، وكانوا كلما وصلوا إلى قرية أو مدينة رست السفينة، وخرج الخدام فابتاعوا ما يريدون من طعام وشراب، وفاكهة، وعاش ابن خدام وباسمة في السفينة شهراً أو بعض شهر، في أنس ونعيم وطرب، حتى لقد قال لها ابن دخان يوماً_ وقد رأى الشمس غاربة، وقد نفذت أشعتها إلى سحب خفيفة حولها، فأرسلت ألواناً يحار اللغوي في تسميتها والرسام في تكوينها، ثم رآها تسقط رويداً بين النخيل المتكاثفة، فتظهر من خلالها صافية براقاً، كأنها سبيكة من نضار: يا بسمتي... حرام أن نقضي حياتنا في هذا اللغو، وأن نعمر عن التمتع بجمال الكون، وبهجة الحياة، إن عندي من الأموال ما يكفل لنا العيش الناعم المترف، فلماذا نكدر هذا العيش بالغم والحزن والكيد لفلان، والحق على فلان؟! انظري إلى الشمس!

- إنك أبله!

- صدقت يا حبيبي! إنني أصاب بالبله عند كل مغيب شمس. فابتسمت (باسمة) وقالت: لو وقف جوهر القائد وقفتك هذه، وتغزل في الشمس وجمالها كما تتغزل، لتفرقت جيوشه وما فتح مصر، وإنني لم أقرأ في التاريخ عن أمير أديب أو شاعر إلا جاءته نكبته من أدبه، وإغراقه في حب الجمال، إن الله خلق في الإنسان وجداناً وفكراً وإرادة، ولكي يكون الإنسان كاملاً يجب أن تتوازن

فيه هذه وتتعدل؛ لأن من يتحكم فيه وجدانه كان بعد شهواته،
ومن يتحكم فيه فكره بقى حزينًا عاجزًا، أما من يتحكم فيه إرادته
فمجنون معربد... أفهمت يا زوجي المفتون بالجمال؟!!

- فهت درسًا يعجز عنه كل الشيوخ الذين يدرسون بدار
الحكمة.

وصلت السفينة إلى قوص، وذهبت (باسمة) وابن دخان
قاصدين قصر شاور، وبذل في تحيتهما وإكرامهما خير ما يبذل
العربي الكريم، ثم سألت (باسمة) عن القاهرة وأحوالها، وعن مجد
الإسلام رزيك ووزارته، فأجابته بعبارات مبهمة، وكان يظهر على
شاور الغيظ من رزيك، والألم من بعده عن تقلب الأمور بالقاهرة،
حتى لكأنه أسد شرس حبيس.

وبعد أيام اختلى شاور بباسمة وابن دخان طويلًا، فقال شاور
لباسمة: كنت أظنك لا تزالين بالقصر!

- سئمت يا سيدي مكاييد الفاطميين ودسائسهم، واستبداد
سيدة القصور بأمور الدولة، وسئمت تحكم الأستاذين،
والجنود السودان في أشرف العرب.

- وبم تشيرين عليّ الآن؟

- إن رزيك الآن أضعف من ثمامة، وهو لعبة في يد سيدة
القصور، فإذا لم تقتنص الفرصة لدخول القاهرة، والجلوس
على عرش الخلافة، ضاعت منك إلى الأبد.

- أعتقد أن العامة يحبون الفاطميين، ويحبون أموالهم حبًا
جمًّا، وأنهم يدافعون بأرواحهم عن خلافتهم.

- إذا نثرت أموالك على جيوشهم ألقوا السلاح ليلتقطوا
الدراهم...

- ثم هناك الجنود السود، وهؤلاء وحوش، إذا سمعوا قعقعة
سلاح طارت رؤوسهم، وقذفوا بأنفسهم كالفراش المتهافت
على النار... لا يا باسمة، إن الأمر ليس بهين، وإن الوقت
لم يحن بعد لهدم الخلافة الفاطمية، ورأيي: أن نصل إلى
الغاية في مرحلتين لا في مرحلة واحدة: نهجم على القاهرة
أولاً مدعين أننا جئنا لنصرة الخلافة، واستنقاذها من أيدي
الأجانب، حتى إذا قضينا على ابن رزيك وأنصارهم،
واسترحنا قليلاً اختلقنا أسباب لاستئصال الخلافة، بعد أن
نكون قد أعددنا العدة.

- لا يا سيدي إن سيدة القصور لن تتركك تستريح، والشعبان إذا
قطع ذنبه زادت ضروراته.

- إن نصف التوفيق توفيق.

- ونصف الكمال نقص.

- وما تقولين في أن ثلاثة أرباع جيشي الذي سأدخل به القاهرة
فاطمي النزعة والعقيدة! وأنني لا أستطيع بحال أن أوجهه إلى
هدم الخلافة، ولو أشرت إليه ما أطاعني، دعي لي تدبير هذا
الأمر يا باسمة، وسترين أنه بعد شهر أو شهرين من استقرارنا
بالقاهرة سينادى بخلافتنا، وستؤخذ لنا البيعة في القصر
الكبير، وستكونين سيدة وصائف القصر.

- ليكن ما تريد يا سيدي... ومتى يزحف الجيش من هنا؟

- بعد خمسة أيام.

الفصل العاشر

زحف شاور بجيشه إلى القاهرة، ومعه ابناه: (طي)، و(شجاع)، وكان الجيش لهاً خضماً، خطب فيه شاور خطبة ضافية مثيرة، ودعاه إلى إنقاذ الخلافة الفاطمية من أيدي الأرمن الغاصبين، وبعد فترة طويلة أشرف على أرباض القاهرة.

علمت سيدة القصور بتحرك جيش شاور من قوص، ونقل إليها أصحاب الأخبار مقدار قوته، وعدد رجاله، فلم تحرك ساكناً؛ لأنها رأت أن في اختلاف اللصوص نجاة القافلة، ورأت في شاور أنه على الرغم من جفوته، ويبس أخلاقه، وشرّه في حب المال لا يزال عريباً، وعرضت الأمر على عمارة وكان محباً لرزيك، صديقاً لشاور فرؤى في الحكم، وغم عليه وجه الصواب. فقالت له سيدة القصور: إني لا أؤثر أحدهما على صاحبه، فكلاهما غاصب للدولة معتد على سلطتها، وأرى أن في معاضدة أحدهما زوالاً للخلافة، وأن الأمر لا يخلو عن إحدى اثنتين: إما أن ينتصر من ساعدناه بجيوشنا، وإما أن ينهزم، فإن انتصر فلن يصل إلى النصر إلا بعد أن

تكون جيوش القصر قد ضعفت، وقل عددها، وحينئذ نراه بعد أيام قد انقلب علينا واستلب عرشنا؛ لما يعلم من عجزنا على مقاومته، وإما أن ينهزم وتنصر خصمه، وتلك الكارثة العظمى؛ لأن الخصم المنتصر لا يكتفي بهزيمة عدوه، بل يدفعه الانتقام إلى استلاب ملك مناصريه.

لا يا عمارة... يجب أن نقف من هذين الخصمين وقفة المشاهد، ولا نميل بجانب إلى واحد منهما، وأن نقول كما يقول العرب: الكلاب على البقر! فافتتح عمارة، وما هي إلا أيام حتى دخل شاور القاهرة، وفرّ رزيك إلى إطفيح، وتمكن منه شاور وقتله، ثم أعمل سيفه في آل رزيك، واستولى على أموالهم، ودخل على سيدة القصور فقابلته بخير ما يقابل به الفاتح العظيم، ونشرت فوقه ألقاب الشرف والبطولة، ودعت عمارة إلى مدحه،

وولاه الخليفة العاضد شئون الوزارة، واجتمع حفل عظيم بقاعة الذهب عند توليته أنشد فيها عمارة قصيدة رائعة.

استمر شاور في الوزارة، وكان جشعًا خبيثًا سفاكًا للدماء، فأغضب العامة والخاصة، وطالما نصحت له باسمته التي أصبحت ولها أكبر مكانة في القصر بالرفق، وصرف الناس عن التعلق بالخلافة بما يبذل من مال، وما ينشر من عدل، ولكنه لم يلق لها سمعًا؛ لأنه كان بطبعه جافًا شريرًا سيء التدبير، وكان أخوه (نجم) مسيطرًا عليه، فزاد حكمه فسادًا على فساد.

ضحَّ أهل القاهرة من ظلم شاور وعسفه، فاجتمعت جموعهم، وتلاقت حشودهم عند باب زويلة، وكان زعيم الجمع ورئيسه الشيخ عبد الحكم الغفاري المدرس بجامع الحاكم، وكان جهير الصوت، قوي التأثير، فأخذ يرسل فيهم صوته بمخازي شاور، وإرهاقه الأمة بأنواع العسف والقوة الجائرة؛ حتى هاج كوامن أحقادهم، ثم دعاهم إلى السير إلى القصر الكبير، فساروا كالبحر المائج، وكان صياحهم: يا شاور ظلمت... يا شاور طغيت... الله الله فينا... بالخليفة نستنجد! وكانت النساء تطل من النوافذ تحيين الجموع بالأغريد والدعاء، ولما قربوا من القصر أمرت سيدة القصور عمارة أن يخرج إليهم، ويهدئهم، ويكلمهم كلامًا عائمًا، ويعدهم ويمنيهم، وقد تم كل هذا، وأظهر عمارة براعة في اجتذاب الجموع إليه، وفي تسكين غضبهم من غير أن تند منه كلمة تغضب صاحب الحكم، أو تغضب الثائرين، وما زالوا بهم حتى تفرقوا مطمئنين مغتبتين.

وبعد يومين عقدت سيدة القصور مجلسًا بالقصر، حضره الأستاذون، ومؤتمن الخلافة، وضرغام ابن عامر اللخمي صاحب الباب، ورئيس الجنود البرقية، وتداول من بالمجلس فيما صارت إليه الأمور في عهد شاور من الفساد والعفن، ورأوا أنه لا بد من استئصال شأفته، وتطهير البلاد من شره.

وكان ضرغام فارس عصره، شجاعًا جميل الطلعة، أديبًا شاعرًا، فوقف وقال: يا سيدتي إن لدي من جنود البرقية عشرة آلاف، وهي تكفي لمحو هذا الطاغية، ومحو عصابته، فقالت سيدة القصور: أني لا أقنع إلا برأس شاور.

خرج ضرغام وقضى أيامًا في إعداد جيشه في الخفاء، حتى إذا تمت أهبته، وثب فجأة على شاور، فجمع شاور جيشه، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام ضرغام، بعد أن ناصره أهل القاهرة، وجمع له الشيخ عبد الحكم جموعًا من أحياء العطوف، ورجوان، والفرحية، والريحانة، فهزم شاور، وقتل ضرغام ابنه طيا، وفرَّ شاور بجيشه إلى الشام للاستنجاد بنور الدين محمود ابن زنكي. وعاد ضرغام إلى القاهرة فائزًا تدق أمامه الطبول، وترفع له الرايات، ووصل إلى القصر، وقابلته الأميرة مرحبة مهنئة، وولاه الخليفة الوزارة.

وكان ابن دخان في ذلك الوقت في داره، فالتفت إلى باسمه وقال: لقد أكثرت من نصح شاور يا باسم، ولكنه لم يسمع!

- ما دام حيًّا فلن أفقد أملًا... إنه صلُّ مخادع يعرف متى يدخل جحره، ومتى يخرج منه، ويجب علينا أيضًا أن ندخل جحرنا الآن حتى تزول هذه العاصفة.

- أتظنين أن لشاور عودة؟

- إنه لما حزبه الأمر، وضايقه جيش ضرغام، دعاني فنصحت له بما يعمل، وقد استجاب لنصحي في هذه المرة.

- حسناً... هلم ندخل جحرنا الآن لنعيش سعيدين متعانقين، فقد شغلتك المؤامرات عني.

الفصل الحادي عشر

ترك شاور بعد هزيمته جيشه بالفرما، واتجه مع أخيه نجم، وابنه شجاع، وبعض خاصته إلى دمشق، فدخلها في أصيل يوم من أيام الصيف، ورأى جنود ابن زنكي منتشرين بخيامهم وأثقالهم وخيولهم في أرباضها، ولهم ضجيج وعجيج وحركة. وما زال يسأل عن خيمة العادل محمود نور الدين حتى بلغها، وكانت في غوطة دمشق بين أشجار الفاكهة والرياحين، فنزل شاور ومن معه بخيمة الحاشية، وطلب من حاجب نور الدين أن يعلمه بقدمه، فجاء الإذن بعد ساعة.

ودخل شاور فرأى نور الدين جالسًا القرفصاء في صدر الخيمة، وفي يده سبحة تتحرك حباتها بحركات لسانه، وقد جلس إلى يمينه العلماء والفقهاء والمحدثون، وإلى يساره القواد وكبار الجند، وكان نور الدين طويل القامة، أسمر اللون، وسيم الطلعة، فأدى شاور التحية فحياه العادل ورحب بمقدمه، وأخذ العلماء يتناقشون في تفسير آيات الجهاد، ونور الدين يشاركهم بعض المشاركة، حتى

عجب شاور وكاد يظن أنه في صومعة زاهد لا في عرين قائد، حتى إذا انفض المجلس؛ التفت نور الدين إلى شاور وقال: كيف حال مصر؟

- مصر يا مولاي في اضطراب مستمر، وأخشى أن ينتهز الإفرنج فرصة ضعفها فينقضوا عليها من الساحل، فإن ضرغامًا اللخمي_ وهو نصير الفاطميين وعدو أهل السنة_ غدر بي وأخذني على غرة، ففزعت إليك، وقد علمت من أيام وأنا في الطريق أنه يرأسل الإفرنج ليمدوه بجيش يستعين به على محاربة كل من تحدثه نفسه بإنقاذ مصر.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا). صدق الله العظيم.

- ثم إن الخليفة العاضد ضعيف الرأي، مهزول العزيمة، وعمته سيدة القصور تسيطر على الدولة، وهي حقوق مستأثرة، تنظر إلى انتصارات مولاي هنا على الإفرنج بعين البغض والضغينة، وكأن الإفرنج أبناء عمومته، أما العقيدة الفاطمية التي أكرهت عليها العامة إكراهًا، فسيدي أعلم بدخانها وبدعها، وإذا كان مولاي العادل قد وقف حياته على الجهاد في سبيل الله، ومحاربة أهل الزيغ، فمصر تدعوه لإنقاذها من الظلم والإلحاد، ومصر تدعوه لحمايتها من غزو الإفرنج، الذي أصبح منها قاب قوسين.

- ولكنني في شغل شاغل بمحاربة الإفرنج، ولو أرسلت معك جيشًا إلى مصر لوثب الإفرنج هنا، واستعادوا ما استنقذناه

من أيديهم من البلاد. لا يا ابن مجير... كل إنسان أولى بمداواة جراحه.

- إنني لا أطلب إلا جيشًا صغير العدد، ينضم إلى جيشي المرابط في مدينة الفرما.

- ولا هذا يا ابن مجير، فقد جئت في وقت توالت فيه الأمداد على أصحاب الصليب وقويت شوكتهم.

- ما كنت أحسب قبلك يا مولاي أن إنساناً يرفض ملك مصر! لأكن معك صريحاً... أتحب أن أكون نائباً عنك في حكم مصر، وأن أبعث إليك بخراجها في كل سنة، وأن يخطب الخطباء باسمك فوق كل منبر؟

فحملق نور الدين في وجه شاور، ولكنه رأى وجهًا سمحًا متواضعًا، ليس فيه أثر للكذب ولا للخديعة، فأطرق وقال: يكون خير إن شاء الله، وفي الصباح دعا نور الدين أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين، وأخبرهما بما كان من أمر شاور، وأمرهما بتجهيز جيش للذهاب إلى مصر بعد أربعة أيام، وقد حاول صلاح الدين أن يدعو نور الدين إلى التريث في الأمر؛ حتى يظهر صدق شاور، أو أن يطلب من شاور ودائع ثمينة لتكون ضمانًا لصدقه، ولكن هيبة ابن زنكي والرهبة منه حبستا لسانه فلم يستطع تكلّمًا.

سافر الجيش الشامي مع شاور وعلى رأسه أسد الدين، وصلاح الدين، والتقى عند الفرما بجيش مصر، ووثب الجيشان على القاهرة، وجمع ضرغام جموعه ووثب في مقدمة جيشه على جيش شاور، فطالت الحرب بينهما، ودمر كل منهما كثيرًا من مباني المدينة،

وأحرق كثيرًا من قصورها، وظفر شاور في النهاية بضرغام فقتله،
وشتت جموعهم، واستولى على القاهرة.

وقبل أن يدخلوا اختلى بأسد الدين وصلاح الدين، وقال لهما:
إن من الخير لكما ألا تدخلوا القاهرة الآن؛ لأن القاهريين إذا رأوا
جنود الشام ظنوهم غزاة فاتحين، فجمعوا

لهم وقتلوهم، وليس لكم من كثرة العدد ما يمكنكم من
المقاومة، والرأي عندي أن تعودا إلى دمشق، وأن تحملا إلى مولاي
الملك العادل كريم تحياتي وجزيل شكري. فقال صلاح الدين: إن
هذا يخالف ما اتفقت مع الملك العادل عليه.

- هو نفس ما اتفقت عليه معه يا قائدي الصغير... لم تتعدَّ
المسألة أن تكون مجاملة بين أميرين... لقد استنجدت
بالعادل ليساعدني على إطفاء ثورة في مصر فساعدني، وهذا
يحصل بين الملوك كل يوم، وأن تكون نائبه عليها؟ فابتسم
شاور ابتسامة دهاء وسخرية وقال: ملك مصر الذي باهى به
فرعون ملوك الدنيا، يمنح في مقابل خمسة آلاف جندي
يسيروا من دمشق إلى باب الفتوح؟! لا يا سيدي... إن
مصر أعلى من ذلك جدًّا... لم يحصل اتفاق على شيء من
هذا، وحينئذ ظهر الغضب على وجه صلاح الدين وقال:
إننا سنعسكر في (بلييس)، وسنتظر أوامر مولانا نور الدين،
وربما التقينا قريبًا يا شاور، ولذلك نرجئ تحية الوداع إلى
تحية القدوم!

دخل شاور القاهرة فاتحًا منصورًا، ولكن القاهرة لم تستقبله استقبال الفاتح المنصور، وللقاهريين غريزة صادقة في الحكم على الرجال، ومقابلة الحوادث.

وأرسلت سيدة القصور تحياتها للقائد العظيم، فمثل شاور بين يديها، وشكت له ما لاقى مصر أيام ضرغام من الظلم والعسف والاضطراب، وخلع عليه الخليفة العاضد خلعة النصر، وقلده سيفًا أثرًا كان لجوهر الصقلي فاتح مصر، ثم ذهب إلى داره فقابلته باسمه، وابنه شجاع، واختليا به، فقال شجاع: أين أسد الدين، وصلاح الدين؟ فقال شاور: أرسلت بهما إلى الجحيم.

- أين هما حقًا؟

- رجعا إلى الشام، فقالت باسمه: يا للعار! أيطرد العربي أضيافه عند باب داره؟! فظهر الغضب على وجه شاور، وقال: نعم يا حاتمي الرعاء، يفعل العربي ذلك إذا رأى أن أضيافه سينقلبون لصوًّا. وقال شجاع: هذا خطأ يا أباي، قد كان يجب، وقد تعجلت في تعهدك لنور الدين أن تكرم قواده، تزودهم بالهدايا والأموال، وتعدهم وتمنيهم، ثم تتخلص من عهدك في لطف لا يحسن. أما الآن، فأخشى أن يعود إليك القائدان بجيوش لا قبل لك بها، فلا نكون قد وضعنا وحدنا، بل ضيعنا مصر معنا. فقال شاور: إن هذه أوهام يا فتى... فإن الإفرنج بالشام لن يتركوا لنور الدين لحظة يفكر فيها في فتح مصر.

وتركهم شاور غاضبًا ودخل حجرة، فرأى أخاه نجمًا، فنفض إليه الأمر كله. فقال له نجم_ وكان الأم من شاور، وأشدَّ خبثًا: عملت كل ما يجب أن يعمل، ولو أن هؤلاء الجنود وضعوا أقدامهم في القاهرة ما استطاعت أي قوة أن تخرجهم منها.

- ولكن ماذا نعمل يا نجم إذا بعث القائدان رسولًا من بليس إلى نور الدين، وبالغا في الشكوى مني، ومما قد يسميانه خيانتني، فأرسل إليهما جيشًا جرارًا لا نستطيع له دفعًا؟
- هذا صحيح يا شاور... وإن له عندي دواء، ولكنه قد يكون مرًا!

- ما هو؟

- أن نرسل في الخفاء رسولًا إلى القائد مرّي ملك الإفرنج بساحل الشام، لنطلب منه أن يزحف بجيوشه على مصر لطرد الغز من بليس، وأن نغريه بقدر كبير من المال... هذا هو الدواء... وهو مرّ حتمًا، ولكن ألا تظنه قاتلًا؟

- لا... إن الإفرنج نستطيع أن نخدعهم، أما هؤلاء الغز: فلا... أين ثعلبة الشماخ؟ فدخل فتى قصير القامة، متين العضل، تدل ملامحه على الشراسة والقسوة.

فكتب شاور رسالة طويلة وسلمها إليه، وقال: تسير الليلة مبالغًا في الاختفاء، ولن تستريح حتى تصل إلى عسقلان، فتقدم هذه الرسالة إلى الملك مرّي، ثم نزع خاتمه وقال: وهذا علامة صدقك إن شك الملك في رسالتك... خذ أسرع خيلي، وعد إلي بعد عشرة أيام.

وذهب الرسول، وقدم الإفرنج إلى مصر في جيش لهم، ووثبوا على أسد الدين ببليس فصالحهم بمال، وعاد أدراجه إلى دمشق، ولكنهم لم يقفوا عند ببليس، بل أخذوا طريقهم إلى القاهرة، ودخلها قائدهم بقسم من جيشه، فأكرم شاور وفادتهم، وأعد لهم منازل وأسواقًا، وقرر لهم مائة ألف دينار في السنة، فأقاموا إقامة المحتل، وطغوا وظلموا، وعاثوا في القاهرة فسادًا.

الفصل الثاني عشر

مضت أربع سنوات أو تزيد، والقاهرة في هم ناصب، وكوارث متتابعة، تقاسي من ظلم شاور وعسفه، وولعه بسفك الدماء، واغتصاب الأموال، وتقاسي من تحكم الإفرنج، واستبدادهم بالناس، وتسلبهم عليهم بضروب من الأذى والإرهاق.

وكانت باسمه حيرى مضطربة النفس، فقد كانت تريد زوال الدولة الفاطمية، ولكنها لم ترد أن تزول بمثل هذا الحكم الأرعن الأحمق، الذي وضع فيه السيف والسوط والنهب، موضع العدل والحق.

وكان شاور إذا اختلى بنفسه، تيقظ في نفسه رسيس من ضمير مهزول، فهمس في أذنه: ماذا فعلت يا ابن مجير؟! ما هذه الدماء التي لا تزال تقطر من يديك؟! لقد تتلم سيفك من قطع الرؤوس، وخدرت يدك من انتهاب الأموال! طلبت الحكم بالقوة والخديعة فلم تهناً به، وهزئت بالغز فوقعت في يد الإفرنج الذين دخلوا القاهرة ضيوفاً مناصرين، فأقاموا بها حكماً غاصبين!

وكانت سيدة القصور وعمارة في ذهول يشبه الحمى، لما أصاب مصر والدولة الفاطمية من نكبات على يد شاور الشريرة المعتوه، كانا يريدان حماية الفاطمية من تسلط الوزراء، وكانا يريدان جمع أمورها بيد الخليفة دون غيره، فكانت المصيبة مضاعفة؛ لأن شاور ابن مجير لم يغتصب سلطة الخليفة وحده، بل قاسمه الإفرنج فيها؛ فوقع الشعب المسكين بين برائن قوتين من قوى الشر، تسوقانه إلى الدمار والفناء.

واحسرتاه! القاهرة المضيئة، الفرحة المرححة، التي ما كانت تنتهي لها أعياد أو مواسم تصبح مظلمة، حزينة، عابسة، مرتعدة، تخشى في الصباح ما يجيء به المساء، وتترقب مذعورة في المساء ما يجيء به الصباح، القاهرة المعزية التي كانت حاضرة الإسلام، ومعقل المدنية، وأم القرى، وسيدة المدائن، والتي كانت جيوشها لا يفارق النصر راياتها تصير نهبًا مقسمًا بين الظلم والطغيان، ويصبح أهلها أذل من غير ووتد!

فجع القاهريون لهذه النوازل، وتكونت جماعات سياسية خفية، واجتمعت إحدى هذه الجماعات بمنزل عمارة اليمني، وكان من المجتمعين: المهذب الأسواني، ومحمد ابن قادوس، وداعي الدعاة ابن عبد القوي، وغيرهم. قال داعي الدعاة: أرايتم كيف آلت بنا الحال، وكيف أصبحت القاهرة مجزراً عامًا تذبح به الناس مرة لشهوات شاور، وأخرى لنزوات الإفرنج؟! فقال عمارة: والمصيبة يا سيدي أن الخليفة أصبح مغلوبًا على أمره، يرى مصر وهي ميراث آبائه الأمجاد تعتصر وتهتضم، ويرى الرعية تسام صنوف العذاب،

ثم لا يستطيع أن يعمل شيئاً، وسيدة القصور تنظر بحسرات إلى آمالها الكبار، وقد ذهبت مع الهواء، فلا تستطيع إلا ان تردد الزفرات. وقال ثالث: مررت بالأمس بسوق البزازين، فرأيت الإفرنج وقد انتشروا فيها، وهو سكارى يغتصبون ما في الدكاكين، ويؤذون كل من مرَّ بالطريق، والناس في كرب وذعر، ثم إن النساء في بيوتهن يرتجفن ليل نهار؛ خوفاً من هجمات الإفرنج عليهن. فقال داعي الدعاة: وقد سمعت أن مري ملك الإفرنج وصل منذ أيام إلى أرض مصر بجيش عظيم؛ به أجناس مختلفة من الإفرنج، وأنه نزل على بليس وحاصرها، وأخذها عنوة، وسبى أهلها، وهو الآن قاصد إلى القاهرة؛ لأنه لم يكتف ببقاء بعض جنوده بها، بل طمع في امتلاك ديار مصر كلها.

فقال المهذب: إن الخبر وصل إلى سيدي متأخراً. فإن جيش مري نزل في هذا الصباح ببركة الحبش، بالقرب من الفسطاط، ولا يخفى على سيدك أن بالفسطاط جميع مخازن الحبوب والغلات التي تمون القاهرة، وأن بها جميع ذخائر الحرب، فإذا استولى مري عليها سقطت القاهرة في ساعات.

وفي هذه اللحظة دخل الشيخ عبد الحكم الغفاري وهو يلهث من التعب، وقد تصبب وجهه عرقاً، وأخذ يصيح: ضعنا وضاعت مصر! إنها كارثة الكوارث، وفادحة الفوادح، هذا شاور المجوسي، أرسل بعض جنوده ينادون بالفسطاط: بأن يرحل عنها جميع سكانها، وألا يقيم فيها رجل ولا امرأة ولا طفل؛ لأنه عزم على إحراق المدينة، وقد أرسل إليها بالأمس عشرين ألف قارورة من

النفط، وعشرة آلاف من مشاعل النار؛ لتنتشر في أرجائها. وقد رأيت وأنا قادم إليكم ما يفتت الأكباد: رأيت سكان الفسطاط وقد هرعوا إلى القاهرة، بنسائهم وأطفالهم ومرضاهم، معولين صائحين، كأنهم في يوم الحشر الأكبر، بعد أن تركوا دورهم، ومتاجرهم، وأمتعتهم، وذخائرهم، ليحرقها شاور الطاغية بالنار، يا للمصيبة! ماذا جرى على مصر؟ وهل كان ذلك مكتوباً لها في لوح القدر؟! وإذا احترقت الفسطاط، واستشرت النار، وسرت إلى القاهرة فالتهمت في طرفة عين، أتجلسون هنا صامتين حتى تأخذكم الصيحة؟! أليس في مصر رجال؟ أليس فيها عقول؟ أليس فيها من يرى رأياً في هذا الداهية الدهياء؟ ليس لنا ملجأ إلا القصر، وإلا الخليفة، وإلا سيدة القصور، فإذا خابت آمالنا في هؤلاء، ذهبنا إلى دورنا، وأغلقتنا أبوابها لتكون حطباً للنيران.

فدهش القوم للخبر المفجع، وكاد يعصف الحزن بقلوبهم، وصاح داعي الدعاة: هلم إلى القصر، دخلوا القصر في صمت وذهول، فرأوا ظلاماً مخيفاً، ورأوا الأستاذين ذاهلين واجمين، يذهبون ويجيئون في اضطراب وحيرة، فتوجهوا إلى غرفة سيدة القصور، فرأوها جالسة وعلى وجهها آثار الغم المكبوت، فأحسنت استقبالهم، ونقلوا إليها ما عندهم من أخبار السوء، فابتسمت ابتسامة اليأس وقالت: علمت كل هذا في الصباح فلم أغادر غرفتي، وبقيت كل هذه المدة أفكر فيما يجب أن يعمل، ووصلت في النهاية إلى رأي قد يكون فيه استجارة من الرمضاء بالنار، واستشفاء من الداء بالداء، ولكن تنوع البلاء خير من استمراره، والمصيبة المشكوك

فيها خير من المحققة، فقال عمارة: على أي شيء عولت يا سيدتي؟
- عولت على الاستنجد بنور الدين ابن زنكي، فقال داعي
الدعاة: هو خير من شاور، ومن الإفرنج على أي حال، فقال
عمارة: هل نضمن بقاء المذهب الفاطمي إذا دخل مصر
هذا السني المتعصب؟ فقال داعي الدعاة: إنه سيأتي إلى
مصر ليحارب الإفرنج لا ليفتح مصر. وقالت سيدة القصور:
أرجو ومهما يكن من شيء فبعض الشر أهون من بعض...
أتوافقون على الاستنصار بنور الدين.
- نوافق...

دعت سيدة القصور خادمتها (تغريد) وأمرتها بإحضار مقص،
فلما أحضرته قصت شعرها، وأمرت أن تقص شعور جميع نساء
القصر من شريفات وجوار، وأن ترسل هذه الشعور مع رسالة استغاثة
واستصراخ لنور الدين، فكتب عمارة رسالة موجزة مبكية قوية
التأثير، على لسان سيدة القصور، يستثير فيها شهامة نور الدين
ورجولته وإسلامه، ويدعوه إلى إنقاذ مصر وإنقاذ المسلمين، ثم
سلمت سيدة القصور الشعور والرسالة إلى أحد رجال البريد؛ ليستبق
الريح في الوصول إلى نور الدين.

ووقفت سيدة القصور أمام نافذتها تنظر إلى النيران مصعوقة
باكية، وهي تصعد زفرات الغيظ، والحقد، والألم... وتقول: أيتها
النيران ماذا تأكلين؟! إنك تأكلين فؤادي وتتأججين في صدري! أي
مسجد تهدمين محرابه، وتحطمين جدرانها؟! وأية دار كان يضيئها
الأنس، ويشع في أنحائها السرور، أصبحت بك اليوم ركائماً؟! ويحي

لما أصاب قومي وأهلي، كانوا بالأمس في منازل تسامق السماء
وتتحدى الجوزاء، فأصبحوا الليلة ولا مأوى لهم، ولا وَزَرَ. ليت
شعري أين اليوم بناتهم المحجبات، وعجائزهم الضعيفات؟ وأين
ما كان لهم من سعادة وعز ونعيم؟ أيتها النيران، التهميني قبل أن
تلتهمي رعيتي، وخذي قبل أن تأخذي ملكي! أنا فداء لمصر،
وفداء لأهلها البررة الأطهار... ما أشدك أيتها النيران وأقساك! كأنك
من حقد شاور اشتعلت، ومن لؤمه تأججت... أما تكفي لإطفائك
دموعي وهن غزار؟! لا... لا... لن أياس في حياتي... إن آمالي
وآمال مصر تلتهب فيك، وهي ذهب نضار، وستزيدها النار صفاء
وخلوصًا من الأوضار.

الفصل الثالث عشر

طار البريد إلى نور الدين فحزن على مصر، وبكى على أهلها، وأرسل جيشاً لجباً يقوده أسد الدين شيركوه، وصالح الدين، وما كادا يلتقيان بجيش الإفرنج، حتى تراجع عن مصر عائداً أدراجه إلى الشام، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فلاقته لقاء الفاتح المنقذ، وتنفس أهلها الصعداء.

ودخل جيش القاهرة وفي أخرياته شيخ يتوكأ على عكازه هو أبو كاظم الحراني، أو زين الدين بن نجا، فإنه بعد أن خابت آماله في الإيقاع بعمارة، وكشفت المؤامرة التي دبرها لفتك سيدة القصور به التجأ إلى نور الدين بدمشق، وأظهر النسك والعبادة، فعينه نور الدين واعظاً لجنده، وأصبح من المقربين في دولته، فلما عزم الجيش على السفر إلى مصر، وتحرك فيه ذنابي الشر، وثار فيه غريزة الأخذ بالتأثر، والانتقام من عمارة، وجال بخاطره أنه إذا لم يظفر به مرة سيظفر به أخرى، لذلك استأذن نور الدين في أن يلحق بجيش مصر، فأذن له.

وبعد يومين استدعى الخليفة العاضد أسد الدين إلى القصر،
وخلع عليه خلعة الوزارة، ولقبه بالمنصور؛ فغضب شاور لعزله
من الوزارة، والتقى بابنه شجاع وقال له: ألا ترى كيف فعل الغز
المغتصبون... جاءوا لينقذوا البلاد من الإفرنج فاستولوا عليها!؟

- يا أبي: من الخير لنا أن نتواري في دورنا، وألا ترى الناس
وجوهنا، فإن القاهريين لو تصدقوا علينا بدمائنا لكانوا أكرم
الناس.

- أكرم الناس! هؤلاء البله المفاليك الذين يصفقون لكل
غالب! إنني عزمت على مكاتبة جميع ملوك الساحل من
الإفرنج؛ ليهجموا على مصر من طريقين: طريق بلبس،
وطريق دمياط.

فلمع الغضب في عيني شجاع وقال: والله لئن لم تنته عن هذه
الأمور؛ لأكشفن الأمر لأسد الدين

- كفكف من غربك يا شجاع، إنني إن لم أفعل هذا قتلنا الغز
عن آخرنا.

- وإذا جاء الإفرنج قتلونا أيضًا، ولأن نقتل والبلاد بيد
المسلمين خير من أن نقتل والبلاد بيد الإفرنج.

ثم دارت الأيام، ولم يستطع صلاح الدين صبرًا على بقاء شاور
حيًا، يحوك الدسائس ويبث الفتن، فقتله بيده، وبعد قليل مات أسد
الدين، فولى الخليفة صلاح الدين الوزارة ولقبه بالملك الناصر.

تولى صلاح الدين الوزارة وهو شديد الحذر من سيدة القصور لا يأمن بشاشتها، ولا يحسن لقاءها، وكأنه رأى بعين بصيرته ما ينطوي عليه قلبها له: من الحقد، والضعينة، والكيد، فهم لعبتها فعمل على تفاديها بلعبات أخرى: علم أنها لم تؤثره بالوزارة مع وجود كبار الرؤساء والقواد بالجيش الشامي، إلا لتوقع الخلاف والفرقة بينه وبين هؤلاء القواد، حتى يصبح بأسهم بينهم شديداً، وحينئذ تتحكم سيدة القصور في الموقف، وترضى عن من ترضى عنه منهم، فيكون صنيعه نعمتها، ومنفذ أمرها، علم صلاح الدين هذا التملق فتملق القواد، وأغدق عليهم، واسترضاهم، وجعل نفسه أداة منفذة لإرادتهم، ثم اتجه إلى القصر، فأخذ يجرده من كل قوة فيه تستطيع أن تقاومه، أو تقف في وجه غايته: فأبعد كثيراً من رجاله، وأخذ يرهق سيدة القصور بطلب الموال حتى كاد يستنفذ ما عندها، ثم رتب بهاء الدين قراقوش_ وهو من أشد رجاله عنفاً وأكثرهم له إخلاصاً_ حارساً على القصر، حتى لا يدخل إليه شيء، أو يخرج منه شيء إلا بإذنه.

ضاقَت سيدة القصور بهذه الحال، وسدت أمامها سبل الحيلة، ورأت أن ملكها ومذهبها الفاطمي يترنحان تحت ضربات قاسية متتابعة، وأنه من العار عليها أن تقف صامتة مغلولة اليدين، والأعداء يقتلون دولتها بسم بطيء، فطلبت أن يدعى إليها عمارة، فلما حضر قالت: أرايت أبا محمد ما فعله بنا ذلك الكردي الوضيع؟ كأن وحياً يهبط عليه بما في نفسي، فكلمنا فكرت له في مكيدة رأيت قد أعد لها ما يحبطها!

- هذا الرجل كارثة على مصر وعلى الفاطمية، وقد حاولت أن
أجتذبه بشعري، وأخدتعه بمديحي، فلم أجد منه إلا جفاء
وإغفالاً، ومن مصيبة مصر أن يكون عبد الرحيم البيساني
الذي يسمونه بالقاضي الفاضل_ وزيراً لهذا الرجل الجامح، وهو
لا يشير عليه إلا بكل ما يهدم الدولة الفاطمية، ويعصف بها.
ولما ضاقت حيلتي مع هذا الكردي أرسلت إليه بهذه القصيدة:

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي
لنفثة مصدر وأناة موجع

نزلت بمصر أطلب الجاه والغنى
فنلتهما في ظل عيش ممتع

وفزت بألف من عطية فائز
مواهبه للصنع لا للتصنع

وكم طرقنتي من يد عاضدية
سرت بين يقظى من عيون وهجع

فقل لصلاح الدين_ والعدل شأنه_
من الحكم المصغي إلي فادعي؟

أقمت بكم ضيفاً ثلاثة أشهر
أقول لصدري كلما ضاق: وسّع

أمن حسنات الدهر أم سيئاته

رضاك عن الدنيا بما فعلت معي؟

ملكك عنان النصر ثم خذلتني

وحالي بمرأى من علاك ومسمع

فلم أتلق منه إلى الساعة جوابًا، وقابلني البيساني فهز رأسه في خبث، وقال: لم أر أعجب من قصيدتك للناصر، لقد غلبت فيها مدحك للفاطميين على مدحه.

- استمر في هذه الطريقة أبا محمد، ولا تيأس من اجتذاب هذا المهر الشموس صلاح الدين، وأن هذه الخائنة تخبره بأسرارنا، وبما تعرف من مخابئ القصر وذخائره.

- نعم قابلني ابن دخان منذ يومين، وفي عينيه نظرات الشامت، وعلمت منه أن زوجه لا تقيم عنده إلا قليلاً، وأنها دائبة في العمل مع رجال صلاح الدين.

- ويل لها مني! اسمع يا عمارة... لم يبق في كنانتي إلا سهم واحد للخلاص من صلاح الدين.

- ستعرفه الآن... يا (تغريد)... مري مؤتمن الخلافة أن يقابلني.

فيقبل مؤتمن الخلافة حزينًا، فتقول له سيدة القصور: كم

عندك من الجنود السودانية؟

- عشرون ألفًا يا سيدتي أو يزيدون.

- هل تستطيع أن تهجم بهم مفاجئة على جنود الغز، وتطهر البلاد منهم؟

- ذلك ممكن يا مولاتي إذا استمر الخلاف الذي أراه بين قوادهم.

- أعدّ العدة وأهجم عليه متى شئت وكيف شئت، والله معنا، وقال عمارة: إذا هزمتنا هذه المرة يا مولاتي ذهب منا كل شيء!

- ليكن ما يكون فإن آخر الدواء الكي، خيلاني وحدي.

انفض المجلس، وخرج عمارة من القصر، وبينما هو في الطريق قابله المهذب الأسواني ومعه شيخ غريب عليه سيمات الصلاح والزهد لا يفتأ لسانه متممًا بالتسبيح والأدعية، فسأله عمارة عنه: فقال: إنه زين الدين ابن نجا، وهو رجل تقي يعظ جنود الغز، ثم مال على أذن عماره وهمس: ويغضهم أشد البغض، فحياه عماره ودعاهما إلى داره، ورأى من حديث زين الدين وسوء عقيدته في الغز، ما حبه إلى نفسه، وقربه إلى قلبه، ووثق عرا الصداقة بينهما، وبعد أيام ثار السود على الغز، واشتد القتال بينهم، وطال أمد المعركة، وكادت صفحة التاريخ تتغير لولا أن تألف قواد صلاح الدين، وصدقوا في الحملة، ولولا أن وثب صلاح الدين وأخوه توران على القصر، وقبضا على مؤتمن الخلافة وقتلاه، فسقط في أيدي السودان، وانطفأت حميتهم.

بعد ذلك؛ زاد تمكن صلاح الدين في مصر، وتحكمه في الخليفة، فأغار على ذخائر القصر وكنوزه، ولها من القيمة فوق ما يقدره الخيال، واستولى على قصور الخلافة، وأخرج أبناء الخلفاء وبناتهم منها، وأسكن كل فريق في دار على حدة تحت حراسة قراقوش، وتصرف في العبيد والخدم، ومنع الخليفة من مغادرة القصر، ووهب إقطاعات المصريين إلى أصحابه وجنوده، وعزل قضاة الشيعة، واستتاب قضاة الشافعية، وأزال شعار الدولة الفاطمية، وأبطل من الآذان (حي على خير العمل)، ومنع أن يدعى للعاضد على المنابر.

قذف صلاح الدين بهذه السهام دفعة واحدة، فصعقت سيدة القصور لهول تلك المصائب المتتالية، ورأت ملكها ومذهبها يذهبان طعمة للقوة والدهاء، فبكت كما تبكي النساء، وعادت إليها غرائز الضعف والأنوثة. أما العاضد، فقد دهمه الغم وأحرقته الحمى، فألحَّ في أن يراه طبيبه عبدالله بن السديد، ولكن الطبيب أبى أن يذهب إليه، فمات حزيناً بائساً منبوذاً.

سرى خبر موته في القاهرة، فشاع الحزن عليه في كل مكان، وزاد في بكاء القاهريين عليه ما أصاب الخلافة من نكبات، بعد أن عاشوا في ظل جناحها في أمن، ودعة، ومواسم، وأعياد، كانت بهجة الدنيا وزينة الدهور، ومرَّ عمارة على القصر فإذا هو طلل دارس، بعد مجد طاول الفرقدين، وعز ملاً الخافقين. فقال:

لي بالديار غداة البين وقفات

أبكي رسوماً خلت منهن سادات

يا ربي إن كان لي في وصلهم طمع
عجل علي فلتأخير آفات

فاجتمع حوله الناس فبكى وبكوا، وثارث ثارثته فأنشد:

أيها الناس والخطاب إلى من
هو من حيث عقله إنسان

هذه خطبة إلى غير شخص
نظمت عقد نثرها الأوزان

لم أخصص بها فلاناً لأنني
في زمان ما في بنيه فلان

ذمنا للزمان ذم لمن فيـ
هـ وحق ألا يُذم الزمان

ونظر من خلال دموعه، فرأى زين الدين ابن نجا يبكي
وينتحب، ورأى باسمه تبتسم في جذل وخبث، فجذبها من عضدها:
تعالى واسمعي يا فتاة، فإن عمارة اليمني لا يخاف الجواسيس،
بلغى سيدك صلاح الدين ما تسمعين:

قلب الزمان على الخلافة قاسي
ما للزمان جري بغير قياس

أسقي لملك عاضدي عطّلت
حجراته بعد الندى والباس
أخذت بنان الغز من أمواله
ورجاله بمخانق الأنفاس
أبني علي والبتول وأحمد
وكواكب الدنيا وخير الناس
هذي حصون الروم عطل غزوها
وغزت دياركم بني العباس
واشدد بكاء الناس وعويلهم، وكادت تكون فتنة، لولا أن جاء
داعي الدعاة، فجذب عمارة من يمينه، وانطلق به.

الفصل الرابع عشر

أسرعت باسمه إلى قصر الأيوبيين، وكان قد سبقها إليه زين الدين ابن نجا، ولما قابلت صلاح الدين، والقاضي الفاضل، نقلت إليهما ما كان من جرأة عمارة، وما كان من بكائه الفاطميين، واستثارة قلوب الناس على من هدم ملكهم، والتلويح أو التصريح بدم صلاح الدين، ثم أنشدته ما حفظت من أبيات عمارة، وأخرج زين الدين من جيبه ورقة وقال: وهذه قصيدة طويلة للعمارة يتناقلها الناس ويستسخونها، وشرع يقرأ منها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل

وجيده بعد حسن الحلي بالعطل

لهفي ولهف بني الآمال قاطبة

على فجيعتها في أكرم الدول

بالله زر ساحة القصرين وابك معي
عليهما لا على (صفيين) و(الجمل)

وقل لأهلهما: والله ما التحمت
فيكم جراحي ولا قرحي بمندمل

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة
في نسل آل المؤمنين علي؟

فغضب صلاح الدين، والتفت إلى القاضي الفاضل وقال: ماذا
نعمل في هذا الرجل الذي يسبنا جهراً!؟!

- إنه يا مولاي شاعر ناثر، وقد أكثر من مدح آل أيوب
فأهملتموه، ولو أن مولاي قتله لهذا الشعر لأغضب العامة،
وما زالت الأشراف تهجى وتمدح. وأرى أن ثورة عمارة لن
تصل به إلى سلامه؛ فاصبر عليه حتى يرتكب من الذنوب ما
يسوغ قتله، فقال زين الدين: إن له شعراً صريحاً في الخروج
على الدين، وعلى مذهب أهل السنة، ألا يكفي هذا لقتله!؟!
فقال القاضي الفاضل: دعه يا ابن نجا فإن من مزايا الشاعر
أن يغتفر له ما لا يغتفر لغيره.

مرت أيام وشهور، وثورة عمارة لا تنطفئ، وعزمه على محاربة
الدولة الصلاحية لا يكل، فكوّن جماعة سرية، واشتعل سخط بعض
قواد صلاح الدين عليه فضمهم إلى جماعته، ومنهم خاله، وكان
بين أفراد الجماعة: داعي الدعاة عبد الجبار بن عبد القوي، وقاضي

القضاة، وعبد الصمد الكاتب، ونصر الله بن كامل، وزين الدين ابن نجا الواعظ الذي كان عبقرياً في الجاسوسية، نابغة في النفاق، وكانت هذه الجماعة تجتمع في داره؛ لأنه كان من المقبولين في دولة صلاح الدين، لا تحوم عليه أية شبهة.

وفي ليلة بينما كان هؤلاء مجتمعين، إذا طرق خفيف على باب الدار، فذعروا جميعاً، وظنوا أنهم أحيط بهم، وفتح أحدهم الباب، فرأى امرأة زرية الهيئة في أثواب الخدم، وما إن اجتازت الدهليز، وكشفت عن وجهها، حتى عرف القوم فيها سيدة القصور؛ فظهر عليهم الدهش فابتسمت وقالت: لقد استطعت أن أفر من أسر قراقوش السمج بهذه الحيلة، وكان أقصى ما أريد أن أشهد اجتماعكم، فلعل أن يكون لي رأي فيه، فحياها القوم تحية الإجلال، ثم أخذوا في الحديث والمناقشة.

وطال الكلام واشتد الجدل، وانتهى الأمر أن تكون المؤامرة ذات شعبتين:

الأولى: أن تكتب رسالة إلى سنان ابن سليمان صاحب الحشيشة بالشام، ورئيس الإسماعيلية، يوصف بها ما حل بالدولة الفاطمية، ويبين فيها ما بين المذهب الإسماعيلي والمذهب الفاطمي من الصلة والقربة، وأن نصر الفاطمية إنما هو نصر للإسماعيلية، ثم يلح عليه في ندب أحد الفدائيين من الإسماعيلية لقتل صلاح الدين.

الثانية: أن تكتب رسائل إلى قواد الإفرنج بالشام وصقلية يدعون فيها إلى القاهرة للاستعانة بهم على صلاح الدين، فإذا جاءوا وخرج

صلاح الدين لقتالهم أقام المصريون بالقاهرة ثورة؛ فتقسمت قوة صلاح الدين بين الإفرنج والثوار، والخارجين عليه من جنده وقواده. ولما هم القوم بكتابة الرسائل، قال زين الدين: من الخير أن نرجئ الكتابة حتى نرؤي فيها، وحتى تكون قوية مؤثرة.

بعد ذلك قامت سيدة القصور، وكانت الشمس قد علت في الأفق، فالتفت في ثيابها المستعارة وقالت: الآن أعود إلى محبسي الذي سأخرج منه على قبري، أو إلى قصري!

ذهب الحراني إلى داره فأقام بها نهاره، حتى إذا أظلم الليل قام ولبس ثيابه، وخرج متجهًا إلى دار القاضي الفاضل، وكان يتمم وهو يتعثر في الظلام قائلاً: اليوم أشفي غيظي منك يا ابن زيدان... اليوم أنتقم لابني، وأبي اللذين قتلهما عمك ظلمًا وعسفًا... لقد كتمت هذا الغل في صدري عشرين عامًا، فاليوم يجد صدري متنفسًا... لقد كنت أنتهز كل فرصة فتطير من يدي، أما اليوم فلن تطير أبدًا! ولما بلغ الدار، قابل القاضي الفاضل، وقص عليه خبر المؤامرة، وأسماء المتآمرين، فأخذه القاضي من يده وذهب به إلى قصر صلاح الدين، فلما سمع الخبر الخطير، أمر كبير حراسه أن يرسل جماعة للقبض على كل متآمر أينما كان، ولم تتم ساعتان حتى قبض عليهم، وأودعوا خزانة البنود، وكانت سجن الفاطميين.

دخل عمارة السجن مستريح النفس ثابت القلب، يخالجه شعور بالطمأنينة، وإحساس بأنه أدى واجب الوفاء كاملاً للفاطميين، ولسيدة القصور.

ونام ليلته هادئ البال، حتى إذا تنفس الصبح دخل عليه
الحراني، وجماعة من الجنود، فلما رآه عمارة قال له: أهكذا تشتري
الدنيا، وتباع الآخرة بالنفاق والختل يا زين الدين؟

- لست زين الدين... أنا أبو كاظم الحراني الذي باع حياته
للسيطان لينتقم منك ومن عمك... اليوم يزول همي، وتطمئن
نفسي، حين أراك مصلوبًا بين القصرين.

فصاح عمارة: اخسأ أيها الكلب النابح! وسلم نفسه للجند،
وأمرهم أن يمروا به على دار القاضي الفاضل، فلما رآه القاضي مقبلًا
دخل وأغلق بابه؛ فضحك عمارة ساخرًا وقال:

عبد الرحيم قد احتجب

إن الخلاص من العجب

ثم أخذ إلى مجلس القضاء، فاعترف غير هياب بكل ما
صدر منه، فحكّم عليه بالصلب هو وأصحابه، وبينما كان عمارة
على خشبة الموت، مرت جنازة يمشي خلفها فقراء القاهرة وعامتهم
باكين معولين، فسأل الجند عن صاحب الجنازة فقيل: هذه سيدة
القصور... سُدّت أمامها منافذ الأمل، وتجهّم لها وجه الزمان،
فتجرعت سمًا زعافًا ماتت به لساعتها.

فصاح عمارة بالجند: عجلوا بي! عجلوا بي! فسيقول الناس
غداً: إن اليوم الثاني عشر من رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة
كان يوم الشهداء، ماتت فيه شهيدة العزة والإباء، ومات فيه شهيد
الكرامة والوفاء! ثم صاح:

نحن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لا تنام
قد فزعنا من الحمام سنيئاً
واسترحنا لما أتانا الحِمام

فہرست

۳	الفصل الأول
۱۱	الفصل الثاني
۱۹	الفصل الثالث
۳۳	الفصل الرابع
۴۱	الفصل الخامس
۴۷	الفصل السادس
۵۷	الفصل السابع
۸۷	الفصل الثامن
۹۳	الفصل التاسع
۱۰۱	الفصل العاشر
۱۰۵	الفصل الحادي عشر
۱۱۳	الفصل الثاني عشر
۱۱۹	الفصل الثالث عشر
۱۲۹	الفصل الرابع عشر

